

تهذيب النفوس



مُقَرَّرَاتُهَا

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

ثمّ أمّا بعد: فإنّ صلاح النفوس من أولى ما يسعى فيه العبد؛ إذ قد علّق الله الفلاح عليه، فقال: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ ﴾، كما أنّه لا سعادة للعبد في الدنيا والآخرة إلّا بتهديبه نفسه، وكلما كانت النفوس مليئة بالآفات كلما كان إصلاحها صعباً والله المستعان، ونظرًا لصعوبة تفهم الكثيرين لطبائع نفوسهم وحقيقة عيوبهم؛ وضعت هذا الكتاب وسيلة لمساعدتي ومساعدة إخواني على هذه المهمة الهامة... ألا وهي: «تهذيب النفوس» والله الموفق.

وقد تكلم العلماء في هذا الباب فكفوا وشفوا، وما في هذه الرسالة إلّا ما هو تقريبٌ لكلامهم، فلا غنى عن كتب السلف في هذا الموضوع ككتاب مختصر منهاج القاصدين وكتاب مدارج السالكين وكتاب الزهد للإمام أحمد وكتاب سير أعلام النبلاء وغيرها من كتب الرقائق التي صنّفها السلف رحمهم الله أجمعين.

وقد قمتُ في هذه الطبعة - بحمد الله - بتنقيح وتعديل ما يحتاج إلى ذلك وزيادة فوائد هامّة في هذا الموضوع، كما قمتُ - بحمد الله - بالاستفاضة نوعاً ما في الكلام عن حسن الخلق وأسباب تحقيقه وعلاماته، والله المسئول أن ينفعني بهذه الرسالة أنا وجميع المسلمين والمسلمات.

والنفوس على أقسام:

﴿ النفس الأمّارة بالسوء: وهي أسوء النفوس وهي التي تحث صاحبها على الشر ولا تكاد تأمره بخير.

❖ النفس اللوامة: وهي التي تلوم صاحبها على فعل المعصية وتندم عند فعل القبيح، وهي خيرٌ من السابقة.

❖ النفس المطمئنة: وهي التي استقامت على الطاعة، فلا تكاد تأمر صاحبها بالمعاصي، ولو عصت فإنها تبادر بالتوبة، وهي أفضل النفوس.

والنفس البشرية كالأرض كلما حفر العبد فيها كلما ظهرت له عيوب وآفات، فالطريقة المثلى لتقويمها هي أن يترك العبد نفسه حتى تظهر رائحة المرض وتفوح فيعرفه فيعالجه، وإنما يُعرف المرض بكثرة الخواطر المتعلقة به، فمثلاً لو وجد نفسه كلما صلى بالناس دعتة نفسه إلى الرياء وتحسين صوته ليمدحه الناس؛ فليعرف حينئذ أنه مريض بالرياء، وقسْ على هذا كما سنوضح بعد إن شاء الله.

ولإصلاح النفوس طريقٌ لا بد من سلوكها والسير فيها؛ حتى يستطيع العبد تهذيب نفسه - بإذن الله - وهذه الطريق لها عوائق وأساسيات ولها ملامح نعرضها في هذا الكتاب بإذن الله.

والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وكتبه

دكتور هاشم محمد الزهرى

الْفَضْلُ الْأَوَّلُ

منهج السنة في تهذيب النفس

وهذا فصلٌ هامٌ أبين فيه اهتمام النبي ﷺ في سُنَّته الشريفة بهذا الأمر اهتماماً كبيراً، فليس الاهتمام به والسعي في تحصيله من ابتداع الصوفية - كما قد يظن البعض - بل هو من مقاصد بعثة الرسول ﷺ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الْعنكبوت : ١٦٤)، فتأمل قوله: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾، ولكنَّ منهجه ﷺ في بيان أهمية هذا الأمر وتطبيقه - أعني تهذيب النفوس - كان منهجاً عملياً واضحاً لا تعنت فيه ولا خرافة، وكان أصحابه - رضوان الله عليهم - أعلم الناس به وبمقاصده ومقاصد شريعته ﷺ، فلم يحتاجوا إلى ما احتاج إليه المتأخرون من مزيد البيان والتوضيح؛ فقلوه ﷺ في كل خطبة في أولها: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا» ليس غرضه مجرد بيان مشروعية ذلك القول في الخطب، بل فيه أعظم دلالة على أهمية التنبه للنفس وآفاتِها، وضرورة محاسبتها، والسعي في تخليصها من عيوبها، وأنَّ ذلك لا يكون إلا بالله لا بقوة العبد ولا قدرته.

فتالله ما أنفع أن يستحضر القلب ذلك على الدوام، وفي مداومته ﷺ على الاستعاذة من العجز والكسل، وكذا الاستعاذة من عذاب النار وعذاب القبر، وكذا دعاءه بثبات القلب على الإسلام، في ذلك كله بيان لأهمية التفكير في هذه الأمور حتى يكون المرء عند الدعاء والاستعاذة منها حاضر القلب، فقد قال ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ الدُّعَاءَ مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَّاهٍ»، وكلما أكثر العبد من التفكير في هذه الأمور كلما حضر قلبه عند الاستعاذة منها، وفي إطالته ﷺ للصلاة - خاصةً إذا صَلَّى وحده - أعظم تهذيب للنفس؛ فإنَّ المداومة على هذه الإطالة - دون إملالٍ للنفس - يكبح جماح

نفورها ويورثها السكينة والإخبات والخشوع والتواضع والزهد؛ بخلاف من لم يعود نفسه على إطالة الصلاة، فإن نفسه سريعة الملل عظيمة النفور عن الطاعة لا يكاد يستطيع صاحبها حبسها على الطاعة لمدة، كما أن هذه الإطالة تورث القلب المحبة؛ وذلك لما فيها من الإكثار من الثناء على الله في القيام والركوع وبعد الرفع من الركوع وفي السجود كما تورث هذه الإطالة القلب الانكسار والافتقار لله، وذلك لما فيها من إطالة للسجود وإطالة للاستغفار بين السجدين، ولا يظن ظان أن الرسول ﷺ إذا قال لأبي بكر حين سأله عن دعاء يدعو به في صلاته، فقال له: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»، لا يظن أن ذلك مجرد بيان لمشروعية ذلك، بل فيه مع ذلك بيان لما ينبغي أن يكون عليه حال قلب المؤمن، ولا يكون ذلك إلا لعبد أكثر من تفكره في سيئاته وهفواته، وقس على هذا في كل أدعيته ﷺ التي كان يدعو بها أو يأمر أصحابه بالدعاء بها، وهذا غيض من فيض أردت به بيان المنهج النبوي الشريف في تهذيب النفوس، وقد ذكرت طرفاً من ذلك في كتاب «حلاوة الدعاء»، وعسى أن أزيد ذلك بياناً في كتاب «الخشوع في الصلاة»، إن شاء الله تعالى.



الفصل الثاني

ضرورة سلوك هذه الطريق وعوائق سلوكها

أولاً- ضرورة سلوك هذه الطريق:

فلا بد من سلوك هذه الطريق لعدة أسباب وهي:

١ - أنها الوسيلة الوحيدة لتذوق الحياة الحقيقية - أعني حياة التعلق بالله ومحبته والأنس به، فالناس موتى إلا أهل طاعة الله، وأهل الطاعة كسالى ونيام إلا أهل هذه الطريق، فحلاوة الإيمان لا تذاق بالعبادات المجردة بل لابد من زهد النفس وصلاحها، فكم من مصلٍّ غافل، وكم من قارئ للقرآن لا يتدبره.. فأين البكاؤون عند قراءة القرآن؟ وأين الخاشعون بين يدي الرحمن؟ قلّوا في هذا الزمان... ألهتهم الشهوات فلعب بهم الشيطان... إخواني... أفيقوا مرور الأيام... أين ما كان من سلفكم من قيام؟ أين ما كان منهم من ذكر وفكر؟ أما تستحيون من الرحمن..؟ خلقكم للعبادة فقلتم بل للطعام.. أمركم بالزهد ووعدكم الإحسان... أما تصدقون أم عليكم تسلط الشيطان...؟ كم تقرأون القرآن ولا تبكون... وكم تصلون وما تخشعون... وكم تصومون ولا تتقون... وكم تعتكفون ولا تتعظون... وكم تعرفون من العلم وما تعملون... أما أن الأوان لأن تعملوا... أم ماذا تنتظرون؟ وصلت مشايحكم إلى المعرفة وأنتم غافلون... أما ذقتم الحلاوة أول التزامكم، فأين ما كنتم تعملون... تعرفون السُّنة ولا تطبقون... إذا كان الأطباء - وهم أنتم - مرضى فكيف يعالجون؟... الناس في حاجة إليكم أما تعلمون... يا ثقليل البطن بالشهوات... ويا كثير النوم في السبرات... ويا كثير الغفلة في الخلوات... وصل العارفون وخيموا في المعسكرات... أما تريد أن تلحقهم؟.. اذبح هواك واستعن بمولاك... واسأله الهداية في خالص الأوقات.

٢- أنها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الأمة وإصلاح الأحوال؛ فمشكلة الأمة اليوم ليست في قلة الملتزمين إنما هي في قلة العاملين بالعلم.

إخواني... أعدادكم كثيرة وأعمالكم قليلة... تعلمتم الكثير وعلمتم بالقليل... ألهتكم الدنيا كما ألهت الناس... أين منكم شديد الباس؟ تصبحون وتنامون مهتمين برزق الأولاد... فأين منكم العباد؟ قلتم آمنا وما ظهرت عليكم حلاوة الإيمان... ما انتفع الناس بوعظكم لقلة الإحسان... والله لدعوة محسنٍ واحد خير من دعوة مائة كسلان... لو كنتم كمشايحكم بالعلم تعملون... لكنتم منذ سنين للشرع تطبقون... فانظروا كيف تأخرت الدعوة بسببكم ولكن لا تشعرون.

٣- أنها الوسيلة الوحيدة لشغل الأوقات؛ فالنفس إن لم تشتغل بالحق تكاسلت واشتغلت بالباطل، فيصير العمر قليل البركة لا خير فيه، ويظهر هذا أكثر عند كبر السن وبلوغ سن المعاش، فتجد الغافلين من الجهلة يقضون النهار والليل أمام التلفاز وعلى المقاهي مع اقتراب وقت موتهم، بينما المؤمنون من كبار السن يشتغلون بالذكر والصلاة والقرآن، والفارق بينهما أن الأول غافل لم يعرف الطريق ولم يسع فيها بينما الثاني عاقل لم يعرف منذ صغره تضييع الأوقات.

إخواني... أعمالكم أعماركم... فيا حسرةً على ما ضاع من الأوقات!! كل يوم يمر ولا تزدادون معرفةً بالرحمن... فهو وبال وخسران... أما سألتكم أنفسكم لم لا يزداد الإيمان... طال الأمد وقست القلوب... أعوذ بالرحمن... خيركم من طال عمره لازدياد الإحسان... وشركم من طال عمره وهو مقيم على العصيان.

٤- أنها الوسيلة الوحيدة لأداء الوظيفة التي خلقنا الله من أجلها على أكمل الوجوه ألا وهي وظيفة العبودية... إخواني... ما خلقتم إلا للعبادة فلا تقصروا في العبادات... وما لكم إلا قلب واحد فلا تفسدوه بالشهوات... أول الطريق معركة مع الشيطان...

وأوسطه سعادة الإيمان... وآخره جوائز العرفان... من جدّ وجد... ومن زرع حصد...
 الصبر الصبر يا مبتدئين... والفرح الفرح يا متوسطين... والفرح الكامل يا عارفين.
 أخي.... كلُّ قلب لم يتخلص من الشهوات، فهو محبوس... القلوب جوالةٌ فقلب
 حول العرش.. وقلب حول الحش «مكان قضاء الحاجة».. أما علمت أنه لا يأتيك عند
 موتك إلا ما كنت به مشغلاً.. ولا ينفعك في قبرك إلا عملك الصالح.. فلا تكن كأهل
 الشهوات... أوقعتهم الدنيا في شباكها فأسلمتهم إلى الذباح.. فما خرج أحد منهم إلا وهو
 مكسور الجناح... وكن كالعابدين... عرفوا حقيقة الدنيا فواصلوا الغدو بالرواح... ما
 كان لهم في الدنيا من مستراح... فلما قدموا على الله قيل لهم كل ما في الجنة لكم مباح...
 إخواني... عليكم بإصلاح النفوس فصلاحها والله أعلى من كنوز الدنيا بأسرها... فاز
 من زكاها... وخاب من دساها...

ثانيًا - عوائق سلوك هذه الطريق؛

١ - خوف الحرمان من الشهوات؛

يظن الممتنع من سلوك هذه الطريق أنه لو سلكها لترك شهواته من كثرة الطعام
 وكثرة المنام، ولفقد السعادة بترك مخالطة الأصحاب والأصدقاء، ولكنها نظرة خاطئة؛
 إذ السعادة بالشهوات لا تدوم بل يعتادها القلب، فلا يكاد يسعد بها بعد فترة بسبب إلفه
 لها بل وتنقلب السعادة حزناً وضيقاً.

ويحك يا ابن آدم تخاف منا أن نضيع عليك ما تركته لأجلنا وأنت لا تنسى جميل
 المخلوق إليك... من ترك لأجلنا أعطيناه فوق الميزان... ومن أراد رضاءنا أردنا ما
 يريد... ومن تصرف بحولنا وقوتنا ألنا له الحديد... عجباً لك يا ابن آدم... لو أمرناك
 بترك الشهوات بدون أجر لما جاز العصيان... فكيف وقد وعدناك على ذلك المحبة

والإحسان... أتأتي الشهوات خوفاً أن تعاني نفسك الحرمان... تالله لو أحببتها لما حرمتها من معرفة الرحمن...

ويحك يا نفس مالك عن طريق المعرفة تجبنين «من الجبن»، أما السعادة الحق تريدن.. عجباً لك كم كنت من الشهوات تقاسين.. وكم كنت تتألمين... فلما رزقت الهداية جعلت تتكاسلين.. ويحك أين همّة العابدين؟ وأين صبر المحيين؟ بل أين استعانة المتوكلين؟ من صبر اليوم عن شهواته.. نالها كلها بعد وفاته... ومن تعجلها في حياته... حرم من لذاته... أنت في دار شتات فتأهب لشتاتك... واجعل الدنيا كيوم صمته عن شهواتك.. أما سمعت عن سعادة سفيان؟ وعبادة النعمان «أبي حنيفة»؟ أين ورع معروف؟ وأين زهد ابن حنبل؟ كان بالعبادة والعلم ملهوف (ملهوفاً).. من فتح له باب طاعة فليدخل... ومن وجد من نفسه إقبالاً فلا يمهل... لئلا تكونوا كمن كره الله انبعاثهم فثبطهم... وقيل لهم كونوا مع من يسفل.

٢- نسيان الموت وطول الأمل؛

فلو أيقن العبد أنه قد يموت في أي لحظة لما أقبل على الشهوات ولصبر عن اللذات حتى يلقي ربه على أكمل الحالات، فمن أراد أن يقدم على هذه الطريق ولا يتكاسل، فعليه بإدمان ذكر الموت، وفي الحديث: «أكثرُوا من ذكر هادم اللذات» إخواني... الموت يأتي فجأة... والعمر ينتهي بغتة... فاتعظوا بإخوانكم الذين ماتوا... يا من بدياه انشغل... وغره طول الأمل.. الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل.. من عاش مات.. ومن مات نُسي وفات... إلا من كان يعمل الصالحات.. لو أبصرتم العمر ومروره... لأبغضتم الأمل وغروره... أخي لو قيل لك ستموت اليوم فما كنت عاملاً؟ فاعمله اليوم وإلا كنت جاهلاً.. مساكين أهل الغفلة... بالشهوات يعذبون... وعليها يحاسبون... فلا سعدوا في الدنيا ولا في الآخرة يستريحون.

إخواني... كونوا كعباد الله الفطنا... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا... واجعلوا الدنيا بحرًا والعبادات سفنًا.

٣- دُعاةُ الهمة:

فصاحب الهمة الدنيئة لا يطلب المعالي بل يرضى بحقيرها، فالدافع الأساسي لخوض هذه الطريق هو علو الهمة، فكن عبد الله كالأسد لا يشرب ماءً ورد عليه كلب، فكذلك الشهوات مورد الدنيء من الناس فلا تشاركهم.. أما علمت أن شهوات الدنيا كالبحر لا تزيد شاربها إلا عطشًا.

إخواني... لو تعلمون ما فاتكم من لذة القيام... لو تعلمون يا من ضيعتم الصيام... لبكيتم الليالي والأيام.

إخواني... أين سعد وبلال^(١)؟ أين حفاظ التوبة والأنفال؟ أين قيام صلة حين قال للأسد ما قال^(٢)؟ أين أمر سفيان ونبيه حين بال ما بال^(٣)؟ أين صدق صاحب الظلال ما هاب السيف القتال^(٤)؟ أين معرفة الجنيد؟ مات وأتى بعده من ضيع العهد.. أين ورع معروف؟.. ذهب وأتى بعده من يأتي المنكر ويترك المعروف..

إخواني... أما تستحيون من الرحمن.. طلبتم في الدنيا الكمال... ورضيتم في أمر الآخرة بالنقصان... أيكم يسكن في بيت بلا أثاث ولا سجاد؟ عجبًا له كيف يرضى أن يكون غير صائم ولا هجاء!!

(١) أي: سعد بن أبي وقاص وبلال مؤذن رسول الله ﷺ.

(٢) أي: صلة بن أشيم إذ كان يقوم ليلة فأتاه أسد فلم يخف منه بل قال له: إن كان لك رزق عندنا فامض إليه وإلا فاطلب الرزق من عند غيرنا فمضى الأسد وتركه.

(٣) أي: سفيان الثوري حيث قال: إني لأرى المنكر فلا أغیره فأبول الدم من خشية الله، فالمقصد التنبيه على علو همته وخشيته كيف بال الدم.

(٤) أي: سيد قطب رحمه الله.

٤- عدم معرفة طبيعة الطريق؛

فيظن المبتدأ أنه سيصل بعد يومين أو أسبوعين، فإذا زهد ولم يجد المعرفة، ملَّ وتكاسل، وعلاج هذا الأمر أن يوطن السالك نفسه على أنه يطيع ويزهد إرضاءً لله وتوفيراً للشواب في الآخرة لا طلباً للسعادة، فإن عاش وصل بإذن الله، وإن مات كان عند الله من أهل الطريق، ثم ليعلم السالك أن طول الطريق وقصرها على حسب إخلاصه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فقد يمن الله على السالك بالمعرفة مبكراً وقد تأتية المعرفة متأخراً، ولكن ليعلم المتأخر أن السعادة بالطاعة تأتي قريباً إن شاء الله، وقد قال مكحول: «من أخلص لله أربعين يوماً رزقه الله الحكمة» وقال آخر: «كابدت قيام الليل سنة وتنعمت به عشرين سنة».

إخواني... اجعلوا جُلَّ همكم العبادة لا السعادة... لا تخافوا من طول الطريق... فإن ربكم رحيم رفيق... الصبر على الطاعة والقيام... خير من تجرع ألم الآثام... مشقة الطاعة ثواب... ولذة المعصية عقاب... كم قال العاصي مللت حياتي، وكم قال الطائع نعيمي في طاعاتي... الحياة بلا معرفة سراب... والحياة مع الشهوات عذاب... خلقت قلوبكم للمعرفة فلا تعذبوها... وأهلت لليقين فلا تحرموها... من حرم المعرفة فهو محروم... ومن ذاقها فهو المرحوم... من سعد بالله سعدت برؤيته النفوس... ومن عاش للشهوات فهو منكوس..

❁ وسائل علاج الكسل والفتور؛

١- أن يصحب المرء أناساً ذوي همّة عالية يشجعونه على سلوك الطريق؛ فيصحب من هم أفضل منه ليشجعوه على أن يكون مثلهم، ولا يصحب من هو أفضل منهم لئلا يتكاسل، وفي الحديث: «المرء على دين خليله».

٢- أن يجعل لنفسه عبادات مرتبطة بالغير لا يستطيع التخلف عنها ليجبر نفسه عليها عند الكسل؛ كتحفيظ القرآن وتعليم العلم، فإذا بحيائه من الناس يمنعه من الكسل.

٣- أن يكون ديدن العبد الاستعاذة بالله من الكسل، ففي دعاء النبي ﷺ أنه كان يقول: «أعوذ بك من الكسل»، وليصدق في تضرعه إلى الله أن يصرف عنه الكسل.

٤- أن يتعاهد نفسه بتذكيرها بسيئاتها حتى توقن بالتقصير، فلو تعبد من باب أنه يزداد لربما تكاسل بخلاف ما لو تعبد من باب تعويض النقص والتقصير، كطالب الجامعة الذي لا يتكاسل أيام الامتحانات لعلمه بقرب الامتحان وشدة تقصيره طوال العام، فكذلك العابد لو أيقن بقرب وفاته وتقصيره؛ لما تكاسل.

٥- أن يفكر في الموت وقرب أجله وأنه ربما كان هذا اليوم آخر أيامه، فإذا به يحسن العمل، وقد قال معروف: «أعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع حسن العمل» وفي الحديث: «صل صلاة مودع كأنك تراه» (السلسلة الصحيحة [١٩١٤]).

٦- أن يكثّر من قراءة سير العباد في كتب الزهد ككتاب حلية الأولياء وصفة الصفوة وسير أعلام النبلاء خاصة عند الفتور.

٧- أن يعرف سبب الكسل ويعالجه، فالبعض قد يصاب بالفتور إذا فقد لذة ما كان يجد فيقال له وطن نفسك على الطاعة والعبادة، فإن أبت فأعلمها بطول الطريق وأنه لا بد من الاختبار، وهل تنال سعادة الدنيا والآخرة هكذا بلا تعب؟ ولتعلم أن العارفين وجدوا ما تجد في نفسك، فصبروا وتغلبوا على الكسل حتى وصلوا إلى الأُنس بالله، فإن صبرت لحقت بهم وإلا فلا.

والبعض قد يصيبه الفتور والملل لحينه إلى الشهوات بعدما تركها فترةً ما فنقول له لا تهدم ما بنيت في الأيام السابقة؛ فإن البناء بطيء واهدم سريع، ولعلك لا تجد إرادة للزهد في قلبك بعد، فاصبر -رحمك الله- فهذا اختبار وامتحان فلا تُسقط مكانتك عند الله.

والبعض قد يأتيه الكسل لكونه نال شهوة من المباحات ككثرة طعام مثلاً فاستحقر نفسه وترك الطريق، فنقول له: ما لا يدرك كله لا يترك جله، وقد كان الرسول يشبع أحياناً للمصلحة والحاجة، والعارف الكامل من كيف قلبه على كل الأحوال فربما احتاج المرء إلى الشبع أحياناً.

٨- ألا يترك الحد الأدنى مما يستطيع إجبار نفسه عليه لئلا تتعود نفسه على الكسل، وحتى تعلم أن صاحبها لا يوافقها في كل ما تطلبه، فلو تكاسل مثلاً عن قيام الليل، قلنا له: قم بأقل من وردك مع التدبر، فإن لم تستطع فلتقم بأكثر من وردك بلا تدبر، فإن لم تستطع فلتقم بأقل من وردك مع إطالة الركوع والسجود وإن لم تتدبر، وعلى العموم لا يترك المرء شيئاً مما تستطيعه نفسه ولو بقهرها عليه والله المستعان.

٩- أن يستغل العبد وقت الفتور في الطاعة ولا يخلو أمره من حالين:

(أ) يأتيه الفتور كثيراً، وهذا حال المبتدئ، فنقول له: اجعل أعمالك اللازمة في وقت الفتور كصلة الرحم وزيارة إخوانك في الله وغيرها.

(ب) قليلاً ما يأتيه الفتور، فنقول له: اجعله في جمع أوراق العلم أو تحضير أوراق الدراسة، ولا بأس بجعله في صلة الرحم، وإنما لم أقل بجعله في صلة الرحم ابتداءً لأن صاحب هذه الحال قليلاً ما يأتيه الفتور وصلة الرحم ليست عملاً هامشياً إن توفر له وقت فعل وإلا فلا، بل هو عمل أساسي لا بد من تنظيم وقت له، فنقول لصاحب هذه الحال: لو أردت جعل وقت فتورك في صلة الرحم بجانب وقتك الذي خصصته لصلة

الرحم فلا بأس، فالإكثار من صلة الرحم خير إلى خير إلا أنه لابد من مراعاة حال الناس وعدم مضايقتهم بكثرة الزيارة.

١٠- أن يعلم أن الفتور اختبار وسيزول قريباً - إن شاء الله - لو صبر فلا يجزع ولا يئأس؛ بل ليستبشر خيراً فإن إيمانه سيزداد لو نجح في الاختبار.

يا نفس اصبري رحمك الله... لا تعودى إلى دنس الشهوات... إن فعلت سعدت قليلاً ثم تأتى الحسرات... إخواني... إرادة الطاعة في القلب عزيزة فلا تضيعوها... والنفس طاعة إلى الشهوات فلا تطيعوها... الفتور سنة ماضية... فمن صبر كان له منحة عالية... ومن جزع فالشهوة فانية... إخواني... قد علقت بمعرفتكم الآمال فلا تخيوها... والنفس تزكو بالصبر فلا تدنسوها... أتريدون المعرفة بلا اختبار؟! كيف وهي صفة الأبرار!! قيامكم الليل بلا تدبر خير من نوم الأكلين... وصلاتكم بلا خشوع خير من كسل المتكاسلين... من ترك العبادة لفقدان لذته... فقد ظهرت حقيقة طاعته... كأنما حظ نفسه هو جُلّ بغيته... خاب من كانت هذه عبادته...

الفصل الثالث أساسيات الطريق

١ - قراءة القرآن بالتدبر؛

فالسالك لطريق المعرفة بلا قرآن كالمجاهد بلا رماح وسمان، وقد قال وهيب بن الورد: «بلوت الأعمال عملاً عملاً فما وجدت أصلح لنفسي من قراءة القرآن بتدبر».

أسباب عدم تدبر القرآن؛

١ - كثرة المعاصي، فالقلب كالمرآة، فلو كان نظيفاً من المعاصي لظهرت فيه حلاوة القرآن، وقد قال عثمان: «لو طهرت قلوبكم ما شبت من كلام ربكم».

٢ - الإكثار من الشهوات خاصة امتلاء المعدة بالطعام، فإنه يكاد يستحيل تدبر القرآن معه لتسلط الشيطان على القلب ومنعه من التدبر والتفهم.

٣ - قلة القراءة للقرآن مما يؤدي إلى إحداث جفوة بين القلب وبين القرآن حتى أن النفس لتملّ من قراءة القدر اليسير من القرآن.

٤ - قسوة القلب بسبب طول الأمل ونسيان الآخرة، فلا تكاد تبكي العين لقراءة القرآن «وقد مر أبو بكر برجل يقرأ القرآن ويبكي فقال: هكذا كنّا ثمّ قست القلوب».

٥ - عدم التأدب بآداب القراءة من وضوء واستقبال القبلة والسواك والتربع أثناء القراءة.

٦ - الإسراع بالقراءة وعدم جعل التفكير والتفهم لمعينة أكبر الهمّ مما يؤدي إلى عدم التدبر، والذي ينبغي أن يتمهل العبد في قراءته ليفهم ما يقرأ؛ فقد دخل رجل على ابن مسعود فقال قرأت المفصل البارحة فقال له: «أهدأ كالشعر» ودخلوا على بعض العارفين فقالوا إنا لنختم القرآن في كذا وكذا فقال: «أما أنا ففي سورة هود منذ ستة

أشهر لم أتجاوزها» وقال ابن عباس: «صلاة ركعتين في تفكير خير من قيام ليلة» أي: لو كان قيام الليلة بلا تدبر.

٧- عدم معرفة معاني آيات القرآن سواء من التفاسير المعتمدة عند أهل السُّنة أو من أقوال العارفين في لطائف بعض الآيات (مما لا يخالف أقوال السلف).

٨- عدم اختيار الأوقات المثلّية للقراءة؛ كبعد الفجر أو بين المغرب والعشاء أو بعد العشاء إلى آخر الليل؛ إذ يكثر نشاط النفس فيها ويسهل التدبر.

إخواني... لا يمس القرآن إلا المطهرون... ولا ينال لذته إلا الصالحون... من قرأ منكم القرآن فليكن الدموع مدراراً... فإن لم يجد، فليتحسر على نفسه ليلاً ونهاراً... إن كنتم تزعمون حب الله فلم تركتم كتابه... أما تأملتُم ما فيه من لطيف عتابه... يُسرّت لكم التفاسير... فأين القارئون... وفي كتاب الله ألم يأن... فأين الخاشعون... من مات قبل تدبر القرآن فما عاش... ومن تدبره على كبر فهذا أعظم معاش... ومن تدبره على صغر، فهذا تعويض ما ترك من شهوات... ما ذهب بلا شيء...

خطوات التدبر:

أن يكثر المرء من قراءته للقرآن ليزيل الجفوة بينه وبين كتاب الله، ويا حبذا لو قرأ يومياً ثلاثة أجزاء.

إذا أحس بزوال الجفوة وعدم شعوره بالملل من كثرة القراءة؛ خصص لنفسه مقداراً ما يقرأه على مهل ويتدبر فيه، وليكن هذا المقدار حزباً فإن شعر بالملل من مواصلة محاولة التدبر؛ فليجزء الحزب في يومه على فترات متباعدة.

إذا أحس بسهولة التدبر جعل الحزب متصلاً ثم يزيده حتى يصل إلى جزء، فأكثر.

وللعبد في القراءة أورد فوراً للتدبر وورد للقراءة من المصحف نظراً تثبيتاً للحفظ وتحصيلاً للثواب، ففي الحديث: «من سره أن يحب الله ورسوله، فليقرأ في المصحف» (الصحيحة: ٢٣٤٢).

وورد للمراجعة، وله توزيع الأورد على مدار اليوم، وإن جمعها كلها ليلاً في صلاته ليقوم ثلث الليل؛ لكان أفضل والله أعلم.

٢- تقليل الشهوات، وهي:

- (أ) شهوة الطعام.
- (ب) شهوة الكلام.
- (ج) شهوة المنام.
- (د) شهوة الاختلاط والتعلق بالناس.
- (هـ) شهوة فضول المعرفة.

(أ) شهوة الطعام:

فإن المعدة متى امتلئت بالطعام تكاسل المرء عن العبادة «ودخل عابد على جماعة في بيت المقدس فقال لا تأكلوا كثيراً فشرّبوا كثيراً فناموا كثيراً فتحسروا كثيراً».

والامتلاء سبب لقلة الفطنة كما قال الشافعي: «إذا امتلئت المعدة غابت الفطنة».

فوائد قلّة الطعام:

١- سبب لتذوق حلاوة الإيمان، فعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «من أراد أن يذوق حلاوة الإيمان فلا يأكل كثيراً».

٢- سبب لكل خير في الدنيا والآخرة فقد قيل: «جعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه قلة الطعام، وجعل الشر كله في بيت وجعل مفتاحه كثرة الطعام» ومتى أكل

العبد كثيرًا تسلط عليه الشيطان، فكان سريع الغضب قاسي القلب والعياذ بالله، فرقة القلب لا تجتمع أبدًا مع امتلاء المعدة على الدوام كما سيأتي إن شاء الله.

٣- أنه سبب لتذكر الفقراء والمساكين وعدم نسيانهم، فيرق القلب فيتعظ بالمواعظ ويتتصح بالنصائح، بخلاف ثقل المعدة فإنه لا يكاد يذكر الفقراء بل ويقسو قلبه، فلا يكاد يتعظ بموعظة.

٤- سبب لنيل الثواب كاملاً في الجنة، فمن أخذ حظه في الدنيا كان من نصيبه في الآخرة ومن لم يفعل كان نصيبه كاملاً في الآخرة، وفي الحديث: «من أراد الدنيا أضرب بالآخرة ومن أراد الآخرة أضرب بدنياه» فأثروا الباقي على الفاني رحمكم الله.

وقال ابن عمر: «ما من عبد ينال حظاً في الدنيا إلا كان من نصيبه في الآخرة ولو كان على الله كريماً» وقال عمر: «لو شئت لكنت من أطيبكم ملبساً وأحسنكم طعاماً ولكني سمعت الله غير أقواماً فقال: «أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها» وروي موقوفاً أيضاً عن عائشة (بسند صحيح).

٥- أنه سبب للفتوحات الربانية والمعارف الإلهية والعلوم الربانية، فإنها لا تهدي إلا لصاحب جوع لا لشبعان ثقلان، فالشيطان أبعد ما يكون من الجائع وأقرب ما يكون من الشبعان، ولذلك يقول النبي ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيّقوا عليه بالصيام» (صحيح سنن أبي داود).

معنى تقليل الطعام:

ليس المقصود كما فعلت الصوفية أن يمتنع الإنسان من أكل الطيب أو ما يجب كما قال أحدهم: «أشتهي اللحم منذ سنين وما أكلته»، فهذا خطأ فالزهد أن تأكل من كل شيء ولا تشبع على الدوام من أي شيء، والرسول ﷺ لم يكن يمتنع من أكل شيء، ولكن كان لا يشبع إلا نادراً.

والعباد في هذا على درجات:

١- من يكثر الصيام ولكنه يشبع في فطوره وسحوره، فإذا لم يزد على الشبع وداوم على هذا، فهو على خير ونرجو له الوصول بإذن الله بشرط عدم الزيادة على الشبع وعدم وجود التخمّة، وبشرط أن يكون محتاجاً لهذا الأكل لمزيد عمل ونحوه لا لمجرد التخمّة والله المستعان.

٢- من هو قليل الصيام ولكنه لا يشبع في أكله، وهذا حال كثير من أهل الخير الذين أعرفهم وقد قال ابن مسعود: «كثرة الصيام تمنعني من قراءة القرآن، والقرآن أحب إلي» ومثل هذا يصل بإذن الله لو التزم الطريق.

٣- من يكثر من الصيام ويأكل في إفطاره قليلاً ليتدبر في قيامه ويزيد في سحوره قليلاً ليتقوى على صيامه، وهذا خير ممن سبق، وليس معنى أكله في السحور أن يمعن في الشبع بل يأكل أقل من الشبع بقليل أو يشبع بالكاد.

٤- من يكثر من الصيام ويأكل قليلاً في الإفطار والسحور معاً، وهذا أكمل الجميع لمن قوي على ذلك، والمقصود من قلة الطعام أن يستطيع القيام بالعبادات وأشغال الدنيا بلا تعب، فيأكل ما يعينه على ذلك دون زيادة.

ما يعين العبد على تقليل الطعام:

- ✽ تصغير اللقمة وكثرة مضغه للطعام.
- ✽ تذكر العبد للفقراء الذين لا يجدون ما يأكلون.
- ✽ استحضار العبد أنه عاصٍ لا يستحق أكلاً فإذا به يرضى بأي طعام ويحمد الله عليه.

✽ إذا لم يستطع العبد تقليل طعامه مرة واحدة تدرج في تقليله شيئاً فشيئاً.

❖ ألا يأكل إلا عند الجوع لا لمجرد حبه وشهوته.

❖ أن ينظم المرء أكله، فيأكل الفاكهة والعصائر في أوقات جوعه لا بعد شبعه من الطعام.

❖ يشغل نفسه بالحق، فالنفس الفارغة تتطلع إلى الشهوات، والمشغولة لا تكاد تتفرغ للتفكير فيها.

(ب) شهوة الكلام؛

فإنه إذا كثر الكلام بغير ذكر الله بعد القلب عن الله وصعبت عليه الطاعة، ومتى قل كلام المرء استطاع ضبط نفسه، فمن ملك لسانه فهو من الملوك، ومن ضبط لسانه فهو لدينه أضيظ، وفي الحديث: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم».

وقال بعض السلف: «ما من شيء أحق بطول حبس من اللسان».

وقال لقمان: «الصمت حكمة وقليل فاعله».

وفي الأثر: «من صمت نجا».

وفي منشور الحكمة: «العاقل يتكلم بعد أن يتدبر كلامه والجاهل يتكلم ثم يتدبر كلامه».

وقال الفضيل: «أعرف من يُعدُّ كلامه من الأسبوع إلى الأسبوع».

وقال بعض الحكماء: «يا بن آدم لا تكثر الكلام فإن الكلام إذا خرج لا يعود».

وقال عمر بن عبد العزيز: «من عدَّ كلامه من عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه، ومن لم يعدَّ كلامه من عمله كثر كلامه».

وقال يونس بن عبيدة: «ما من الناس أحدٌ يكون منه لسانه على بالٍ إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله».

وقال الحسن: «ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه».

وكان الربيع بن خثيم: «إذا أصبح وضع دواةً وقرطاسًا وقلماً، فكل ما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء».

وفي الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» (رواه البخاري)، فالكلام المذموم ما كان في غير طاعة الله أو كان لا فائدة فيه.

وقال بعض السلف: «إذا أردت أن تتكلم فاسكت وإذا أردت أن تسكت فتكلم» يعني إذا خفت على نفسك الرياء ولم يكن في الكلام مصلحة راجحة فلا تتكلم.

(ج) شهوة المنام:

فإنه متى كثر النوم قسى القلب وضاع الوقت النفيس ومتى قل النوم تمكن العبد من أداء وظائف العبادات، وقد قال بعض السلف: «اللهم اشفني من النوم باليسير»، وذلك لحرصه على الطاعة، وقال آخر: «لولا أن النوم جلبة لدعوت الله ألا أنام»، وقال بعض الصالحين: «لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تجعل الرجل يوم القيامة مفلساً»، وقال تعالى عن العابدين: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ وفي الحديث: «من خاف أدلج» وهو السير بالليل؛ فالخائف من الله يتعبد ليلاً ونهاراً ليصل إلى الجنة. وليس المقصود من قلة النوم أن يقلله الإنسان بحيث يتأذى ولكن المقصود أن يقلله قدر ما يستطيع ولكن لا يزيد عن ٨ ساعات ولو نام خمس ساعات لكان خيراً كثيراً والله المستعان، ومن الخطأ الإكثار من السهر بحيث يصلي الإنسان الفجر وهو كسلان متعب، فالفرض أولى بالاهتمام من النفل.

كيفية تقليل النوم:

✽ تقليل الطعام؛ فإن المعدة متى ثقلت وامتلأت نام الإنسان كثيرًا ومتى قل الطعام قل النوم.

✽ يقلل عدد ساعات نومه تدريجيًا، ولا بأس أن يستعمل أدوية الصداع لو شعر بوجع رأسه حتى يتعود على قلة النوم «والنفس ما عودتها تتعود».

يوزع النوم على مرات ليسهل عليه التقليل، وكلما دعت نفسه إلى المنام سَوَّفَهَا بالفترة الثانية، وأفضل أوقات النوم ما بين الظهر والعصر وبالليل؛ فمن الخطأ سهر الليل كله وفي الحديث: «ما قام رسول الله ليلة كاملة يحييها» («صحيح سنن النسائي»). ولا حرج إن شاء الله أن ينام الإنسان متى شاء طالما لم يخلَّ بالصلوات ولكن الأفضل ما قدمنا من أوقات، ونوم الليل جبلة وسنة كونية فالأفضل عدم تغييرها إلا في المواسم كالعشر الأواخر من رمضان.

الخوف والاهتمام بأمر العبادة، فإنه متى خاف المرء واهتم بشيء قل نومه.

وقد قال بعض السلف: «خوف جهنم أطار النوم من أعين العابدين».

وقال بعضهم: «لو تأملتم خلود الكفار في النار لما نمتُم ليلاً ولا نهاراً»، والطالب في الدراسة الدنيوية لا ينام أثناء امتحاناته إلا قليلاً، فكذلك فليكن طالب الآخرة..

(د) شهوة الاختلاط والتعلق بالناس:

فإن العبد متى تعلق بغير الله ضاع حظه من الله، وتقطع قلبه على الدنيا حسرات، ومتى تعلق بالله أتاه الخير من كل جانب، وليحذر الداعية والعابد والعالم من كثرة المخالطة، فإنه لا بد أن يجعل لنفسه وقتاً يخلو فيه بالله وفي الحديث: «وابك على خطيئتك وئِسَعَكَ بيتك» وليس المعنى ترك مخالطتهم واعتزالهم، فلا يجد الجهال من يعلمهم ولا

العصاة من يعظهم، ولكن المقصود ألا يكثُر المرء من الخلطة، ففي الحديث: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم» وليحذر المرء من التعلق بأشخاص يعجب بصورهم ولو كانت الزوجات، فالمؤمن لا يتعلق بغير الله، وليحذر الدعاة أن يتعلقوا بشخص لا تقوم الدعوة إلا عليه، فهذا هو رسول الله ﷺ أعظم الدعاة يموت وتستمر الصحابة على طريقته وينشرون الدين من بعده، فالأشخاص آلة اختارها الله لنشر دينه، والدين قائم بهم أو بغيرهم.

فوائد مخالطة الناس:

فبعض الناس بطبيعة عمله كداعية أو عالم ينشر العلم قد يضطر إلى مخالطة الناس أكثر من غيره، فنقول له: لا تنس أن تجعل لنفسك وقتاً تتفرغ فيه وفي الأثر: «حق على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يخالط الناس فيما لا بد له منه وساعة يخلو فيها بربه وساعة يستجم بها ليتقوى على بقية الساعات» ثم نقول له: من الممكن أن تستغل هذه المخالطة فيما تنتفع به لتكون فائدة لك لا وبالأعلى عليك وذلك بوسائل:

✽ أن يستغل المرء خلطته وتعامله مع الناس ليكتشف عيوبه وأخلاقه التي لا تظهر إلا بالمعاملة، فإذا عرف عيوبه هذب نفسه وقومها - ومعرفة هذا لا تستطيع إلا بالمخالطة.

✽ أن يعود المرء نفسه على احتمال أخلاق الآخرين وطباعهم، فيكون قد نال مرتبة حسن الخلق، فحسن الخلق ليس بالإحسان إلى من أحسن إليك ولكنه الإحسان إلى من أساء إليك، فحسن الخلق لا يظهر إلا بالمخالطة.

✽ بالمخالطة يتمكن المرء من دعوة الناس إلى الله وتحفيظهم القرآن وتعليمهم العلم، ومن خلال حسن خلقه معهم يكسب جبههم له فيستطيع إقناعهم بالحق، ولكن ليحذر من

التعلق بمخلوق غير الله مهما كان؛ فإن القلب المتعلق بغير الله لا يصل إلى الله، ولعل هذا من أكبر آفات كثرة المخالطة بين الإخوة والأصدقاء أعني أن تتعلق قلوب بعضهم ببعض بصورة مبالغ فيها والله المستعان.

(هـ) فضول المعرفة أو حبُّ الفضول؛

وعلامته ألا يزال المرء طالباً لمعرفة كل شيء عن غيره، فلا يرى قومًا يتكلمون إلا وسألهم عن كلامهم أو ربما استمع إليهم وتصنت أو تجسس عليهم.

وعلامته كذلك محاولة التدخل في أمور الناس الخاصة مع عدم طلبهم منه ذلك، وهذه شهوة ذميمة تسبب للعبء المذمة عند الناس قبل ذم الدين، وفي الحديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» وقد قال بعض الحكماء: «من تدخل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه».

ومن مظاهر هذا الفضول أيضًا أن ينظر إلى الناس وهم يأكلون ليعرف ماذا يأكلون وكم يأكل أحدهم وكيف يأكل، وغير ذلك من دنايا النفوس؛ أعاذني الله والمسلمين منها.

فائدة هامة:

اقتصاد النفس في تناول الشهوات المباحة لا يعني منع النفس بالكلية كما ظن كثير من الصوفية، بل المقصود - كما كان يفعل النبي ﷺ - عدم الامتناع الشرعي من تناول الطيبات المباحة ولكن لم يكن يشبع ﷺ في أغلب الأحيان، وليعلم السالك طريق الهداية أن الخلل في فهم هذا الأمر ربما أورث الكسل والانقطاع عن الطاعة، وهذا مشاهدٌ فيمن منعوا أنفسهم من الطيبات بالكلية، فإذا بأنفسهم تنازعهم أشد المنازعة إليها - فهي لا تريد الشعور بالحرمان أو المنع - فإذا تناولوها تولد لديهم الشعور بالعجز عن الزهد، فينقطعون عن مجاهدة النفس أصلًا، بل ربما أورثهم ذلك

الإسراف في تناول المباحات - فوق ما اعتادوه قبل سلوكهم طريق المجاهدة - لكي ينفوا عن أنفسهم الشعور بالحرمان، فاللزام إذاً مداراة النفس والرفق بها حتى يتم للعبد مراده من تهذيبه لها، والنفوس في ذلك على درجات:

(أ) نفسٌ إذا عرض عليها صاحبها سير السلف وأقوالهم في الزهد، أو رثها ذلك قصر الأمل والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، فترى الآخرة قريبة، فمثل هذه النفس يخبرها صاحبها عند منعه لها من المبالغة في الشهوات المباحة، يخبرها بأنه إنَّها يوفّر عليها نصيبها في الآخرة التي هي عن قريبٍ آتية، كمن صام يومًا ونازعته نفسه إلى الطعام والشراب، فإنَّه إذا أخبرها بأنه سيعطيها ما منعها منه عند غروب الشمس صبرت لما تراه من قُرب وقت الإفطار، وهكذا كان حال نفوس الصحابة والسلف الصالح - رضي الله عنهم أجمعين.

(ب) نفسٌ لم تصل بعدُ إلى اليقين بقرب الآخرة وترى أنَّ الصبر عن الشهوات إلى حين القدوم على الله أمدٌ بعيدٌ، وهذا نقصٌ بلا شك، فينبغي لصاحب هذه النفس أن يجعل لها أجلًا قريبًا في ظنِّها يمكنها فيه من بعض شهواتها المباحة مع التنبه لأمر:

١ - لا بد أن يكون تناولها لشهواتها دون إسرافٍ أو مبالغةٍ.

٢ - أن يكون وقت تناولها بعيدًا عن أوقات التعب، فيكون تناوله للأكل مثلاً في غدائه (ما يسميه العوامّ بالفطور)، بينما لا يأكل ليلاً إلّا ما يحتاجه البدن دون زيادة؛ ليكون قلبه حاضرًا ونفسه مطمئنةً أثناء أداء وظائف الليل كـ (قيام الليل والدعاء والاستغفار بالسحر).

٣ - أن يكون كارهاً لحال نفسه - فيقيناها غيرُ كاملٍ بلا شك - عسى أن تكون كراهيته هذه سبباً لترقيّ نفسه إلى الحال الأولى.

٤- أن يكثر من دعاء ربه والتضرع إليه بأن يرزقه اليقين الكامل.

٥- إذا وجد من نفسه طواعيةً لترك الشبع حتى في الأوقات التي قد جعلها لتناول ما تشتهيه نفسه من المباحات دون إسراف، إذا وجد من نفسه الطواعية لذلك حمد الله، ولم يتناول منها إلا ما يحتاجه بدنه، ولعلّ المداوم على هذه الطريقة في تهذيب نفسه يجد منها الطواعية في كثير من الأحيان؛ لعدم شعور نفسه بالحرمان، والله المستعان.

٦- ألا يبالي ماذا أكل ولا ماذا شرب، إنّما غاية ما يبيحه لنفسه أن تشبع في الأوقات التي جعلها لذلك دون تكلفٍ لطعام معين، فإن لم تكن كذلك عاقبها بالحرمان من بعض ما قد فسح لها فيه، حتى إذا استقامت أعادها إلى ما كانت عليه.

(ج) نفسٌ إذا دعاها صاحبها إلى الصبر عن شهواتها لأجلٍ قريبٍ لم تجبه بل تريد قضاء وطرها من كل ما تشتهيه في كلّ وقت، فهذه حالٌ رديّة، ولا بد من قسر هذه النفس وكبح جماح شهواتها رغماً عنها، ويكون ذلك بتكليفها الطريق السابق ذكرها (رقم ب) مع معاقبتها إذا توانت أو أهملت حتى يصير سلوك هذه الطريق طواعيةً.

موعظة:

إخواني... من صام اليوم عن شهواته... أفطر عليها بعد مماته... ومن تعجلها في حياته... حرمها بعد وفاته... فليكن طعام أحدكم الزاد... واستعدوا بالطاعة ليوم المعاد... ما وصل إلى الله شعبان... وما تعبد ولا اجتهد كسلان... من فضّل الله على اللذات... كان عند الله من خير البريات...

إخواني... أصلح ما فيكم القلب واللسان إذا طهرا... وأخبثه القلب واللسان إذا خبثا... فطوبى لمن ضبط نفسه ولسانه... وخاب من كان أمله أمامه... لسانكم طلاع للكلام... فاشغلوه بالذكر عن الآثام... ذكر الله دواء... وذكر الناس داء... وفي القرآن الشفاء.

إخواني... من نام منكم بلانية فقد انقطع عن العمل... ومن انتوى فقد عمل وعمل... من استطاع منكم ألا ينام إلا قليلاً فليفعل... ومن استطاع أن يختم القرآن في سبع فلا يبخل...

إخواني... النوم مكسلة والأكل مثقلة... والعبادة مسعدة... فطوبى لمن كانت حياته كلها طاعات... وكان نومه وأكله عبادات... فالوقت غالي ونفيس... فيا حسرة على ما ضاع في النوم الرخيص... ستنامون في قبوركم كثيراً... فلتناموا في حياتكم قليلاً... أنتم عبيد لسيد لا ينام... فبئس العبد من أكثر النوم وسيده لا ينام.

٢- المحافظة على الوقت؛

فإنه رأس مال العبد فكيف لا يحافظ عليه؛ قال الحسن: «صحبت أقواماً كان أحدهم أبخل بالوقت منكم بالدرهم» وقال الشافعي: «سمعت الصوفية يقولون الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك» وقيل لبعض السلف قف نكلمك فقال: «أوقفوا الشمس ومضى»، ومر بعض السلف يقوم يلعبون فسألهم فقالوا فرغنا فتلعب فقال: «ما بهذا أمر الفارغ» يقصد قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ ودخل قوم على معروف الكرخي فأطالوا الجلوس عنده فقال: ألا تقومون إن ملك الشمس يجرها جرّاً لا يفتر.. إخواني.. إنما أنتم أيام معدودة إذا ذهب البعض ذهب الكل، فاغتنموا العمريرحكم الله.. يا ابن آدم كل يوم على عملك شهيد.. فاغتنمه فإنه لا يعود.. الليل والنهار يعملان فيك.. فاعمل فيهما بخير ما استطعت.. من أساء بالليل فليحسن بالنهار.. ومن أساء بالنهار فليحسن بالليل.. الدنيا مراحل فنازل وراحل.. فمن كان بالخير نازلاً كان إلى الخير راحلاً..

إخواني.. الثانية في الدنيا بملايين ملايين السنين في الآخرة فانظروا كم ضيعتم من السنين.. إخواني.. لا يفترق عامل عن عامل يوم القيامة إلا باستغلال الأوقات.. فطوبى لمن يحافظ على اللحظات... ويا لندامة من ضيع السنوات.. إخواني.. العمر

قصير.. والعمل كثير.. فاعملوا الجاريات^(١) فإنها مباركات... خيركم من تعلم القرآن وعلمه.. فله ثواب من حفظه وفهمه.. ومن أحسن عملاً ممن دعا إلى الله.. هو والله ولي الله وحبيب الله.. تعلموا العلم وعلموه الناس... وخذوا الدين بقوة وبأس.. وأقلوا من الشهوات.. فإنها للوقت مضيعات.. وللقلوب مفسدات.. ولبركة الأعمال مذهبات.. واستعينوا برَبِّ البريات...

إخواني... لا يكن أحدكم دائراً على الدنيا بالنهار.. تاركاً لقيام الليل والاستغفار بالأَسْحَار.. سعي الدنيا لا بد منه فعليكم بالنيات الصالحات.. تكن حياتكم كلها طاعات.. طوبى لعبد لم ينس عند النوم والأكل والزواج النوايا.. وأفلح مَنْ صدق في توبته، فكفّر عنه الذنوب والخطايا..

٤- الذكر:

فهو أساس المحبة وسبب المعرفة ولم يأمر الله به مجرداً، بل أمر بالإكثار منه فقال: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (الْإِنْشَاء: ٤١) وفي الحديث: «سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ» قيل: ومن المفردون؟ قال: «الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ» (رواه مسلم). وفي مختصر منهاج القاصدين: «بالذكر والفكر تنال معرفة الله» ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره، فمن زعم محبة الله فليكثر من ذكره... ومن أكثر من ذكر الله اطمأن قلبه ويسّر الله له أمره وورزقه حلاوة الإيمان..

آداب الذكر:

✽ أن يكثر من الذكر على العموم وإذا جلس للذكر - كأذكار الصباح والمساء وأذكار ما بعد الصلاة - أطال المجلس.

✽ أن يكون متوضئاً مستاكاً مستقبلاً القبلة متربّعاً.

(١) أي: الأعمال التي يبقى ثوابها للمرء بعد موته كتعليم العلم وتحفيظ القرآن وبناء المساجد والصدقات الجارية.

✽ أن يتدبر ويتأمل ما يذكر، ومن جاهد شاهد، ومن ذاق عرف ومن عرف اغترف.

✽ أن ينتبه لئلا يتشتت عقله أو يغفل قلبه أثناء الذكر فيضيع الوقت بلا فائدة، وليعلم الذاكر أن ثواب الأذكار الوارد إنما هو لمن تدبر، فلا يقال هذا ذاكر إلا لمن استحضر بقلبه أما الغافل اللاهي فلا.. وإذا كان الله لا يقبل الدعاء عن قلب غافل فالذكر أولى - نعم من ذكر بلسانه فقط له ثوابه ولكنه أنقص من الثواب الوارد في الأحاديث، والله أعلم.

✽ أن يستغل أوقات الفراغ في ذكر الله كمشييه في الطريق أو إلى عمله أو في ركوبه المواصلات، وإن لم يستطع التدبر في أوقات العمل لإرهاق أو نحوه فلا بأس، فالذكر بدون تدبر خير من ضياع الوقت في غير عمل.

✽ أن يستحضر أثناء ذكره أن الله مطلع عليه ويسمع كلامه وأنه يناجي ربه بهذا الذكر فهذا من أكبر أسباب التدبر.

✽ ألا يكثر من النظر إلى الأشياء أو تقلب البصر أثناء الذكر بل ليكن خاشعاً متواضعاً مطرّقاً متدبراً، فالنظر رائد القلب، فإذا تشتت البصر تشتت القلب. وليحذر العابد عموماً من كثرة تقلب البصر فإنه يذهب هيبة القلب وحلاوة اليقين وربما جره إلى النظر إلى المحرمات.

✽ أن يتباعد عن أسباب الكسل ككثرة الطعام، وكذا الذكر وهو مضطجع فربما غلبه النوم دون أن يقول الأذكار وفي الحديث: «يأتي الشيطان أحدكم فينومه قبل أن يذكر» (رواه أبو داود وصححه الألباني).

✽ ألا يرفع صوته بالذكر فإنه أقرب إلى التدبر إلا حيث شرع ذلك، وليكن بعيداً عن نظر الناس قدر المستطاع لئلا يفتح على نفسه باب الرياء.

✽ يطالع على ثواب الأذكار العامة والخاصة الواردة في صحيح كتب السنة مثل: كتاب صحيح الترغيب والترهيب.

إخواني من ترك أذكار المساء والصباح... فقد أضاع أساساً للصلاح... ومن أكثر منكم الذكر... كان له كالمصباح... ومن أكثر التهليل... رزقه عند موته... فضلاً من الجليل... ومن عاش بالقرآن... كان في معية الرحمن.. أما سمعتم بمن أكمل ختمته عند موته^(١).. أما علمتم بمن ابتدئ عند الموت ورده^(٢).. هكذا فضل الله على عبده... أكثر ما ينجي من النار... ذكر الواحد القهار... هكذا قال الرسول... فلا تتركوا الأذكار... إخواني... الذكر بلا تدبر ثوابه ناقص... ولكنه خير من الغفلة... وقيام ليلة مع السهو ناقصة... ولكنها خير من النوم...

٥- قيام الليل:

وهو أساسي لمن أراد المعرفة؛ يقول الله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ (١١) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿ (الذَّارِيَاتُ: ١٦، ١٧)، وفي الحديث: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم» ولأهميته كان فرضاً في أول الإسلام ثم نسخ وصار سنة مؤكدة.

آداب قيام الليل:

✽ ألا يكثر من الطعام؛ كي يسهل عليه تدبر آيات القرآن فإن المعدة إذا ثقلت تسلط الشيطان على القلب وصعب عليه تدبر القرآن.

✽ ألا يكثر أثناء يومه من السعي إلا فيما ينفع؛ كي تبقى فيه قوة لقيام الليل ولكي يسهل عليه الاستيقاظ.

(١) أعني ما ورد عن بعض السلف أن إخوانه دخلوا عليه عند موته وهو يقرأ القرآن فقالوا: لو استرحت فقال: هي ختمتي أكملها فمات وهو يقرأها.

(٢) أعني ما ورد عن بعض السلف أنهم دخلوا عليه وهو في سكرات الموت فقالوا له: قل لا إله إلا الله فقال: دعوني فأني بدأت الآن في وردي السادس.

✽ أن يتبع السنن المتعلقة بقيام الليل من أذكار يقولها أو ركعتين خفيفتين يبدأ بهما أو سواك وغيرها مما ذكر في كتاب الأسباب الميسرة لقيام الليل للشيخ وحيد عبد السلام بلي.

✽ يتدرج مع نفسه في الصلاة فيبدأ مثلاً بعشر آيات في الركعة ثم يزيد شيئاً فشيئاً.

✽ مراعاة أن كثرة القراءة مع قلة عدد الركعات أفضل من الزيادة على إحدى عشرة ركعة، ولكن لو شق عليه ذلك في البداية، فلا بأس بالزيادة على إحدى عشرة ركعة ليقرأ أكثر.

✽ أن يتدبر أذكار الصلاة ويخشع ويتضرع ويتأمل ما يقوله في صلاته، فهذا أكبر سبب لخشوعه في الصلاة.

✽ أن يطيل بين السجدين ويكثر من الاستغفار والتوبة على تقصيره فيما مضى من تركه لقيام الليل، وعلى تقصيره الآن في شكر نعمة قيام الليل.

✽ أن يكثر من ثنائه على الله ويطيل الصلاة، فهذا قوته وغذاؤه خاصة مع تقليله من الطعام.

✽ أن يتضرع إلى الله بأن يمنّ عليه بالثبات على هذه العبادة كل ليلة.

✽ أن يزيد من وقت الليل تدريجياً، فأقل ما ينبغي للعارف قيام ثلث الليل والله أعلم، وأقل ما يقوم به المبتدئ عشر آيات في الركعة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ (الزُّزِّلَ: ٢٠). ولم يذكر أقل من الثلث وفي الحديث: «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين» (صحيح الجامع ٦٤٣٩).

✽ أن يعيد الآيات ليفهم معانيها أكثر، فقد قام النبي ليلة كاملة بآية واحدة يرددها.

✽ أن يتفهم ويتدبر أسماء الله وصفاته من خلال تدبره للآيات، فهذا باب عظيم النفع جدًا، ومن خلال فهمه للتفسير مع خلو معدته وتكرار الآيات تكون الفتوح الكثيرة بإذن الله.

✽ أن يقرأ القرآن كلمة كلمة كما كان يفعل النبي ﷺ ولا يكن همه كثرة الآيات بل تدبرها وتأثيرها في قلبه.

✽ أن يختار الوقت الذي لا يتكاسل فيه فإن كان يغلب على ظنه الاستيقاظ آخر الليل أخره إلى آخر الليل، فإن كان مبتدئًا ويخشى من عدم الاستيقاظ جعله قبل أن ينام.

✽ أن يصبر ولا ييأس إن لم يجد الحلاوة في البداية، وقد قال بعض السلف: كابدت قيام الليل سنة وتنعمت به عشرين سنة، وليعلم أنه قد يجد الحلاوة في البداية ليعلمه الله حلاوة ما سيناله لو داوم ثم يفقدها اختبارًا من الله له هل يصبر أم يجزع.

✽ إن أصابه الفتور داوم على الحد الأدنى الذي يقدر عليه على ما فصلنا من قبل.

تنبيه: من لم يستطع قيام الليل لطبيعة عمل أو لإرهاق وكذلك من نام عن حربه عن غير عمد، فليعوضه أثناء النهار بقراءة القرآن وصلاة النوافل من الضحى وغيره وفي الحديث: «من نام عن حربه من الليل فقرأه بين صلاة الصبح وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل» (صحيح النسائي).

وما لا يدرك كله لا يترك جُلَّهُ، والمقصود من قيام الليل عبادة القيام نفسها مع ما فيها من تدبر للقرآن وصلاة وتعب، فإذا فات وقت الليل لم تفت إمكانية التدبر والصلاة

بل قال بعض السلف: «قراءة القرآن بعد الفجر أنفع للقلب من الليل»، وليس هذا على إطلاقه، ولكن من لم يستطع قيام الليل لعذر فليعوضه بالنهار وليكثر من ركعات الضحى والصلاة بين الظهر والعصر تعويضاً..

وقد قال بعض السلف: «من فاته الخير بالليل فعنده بالنهار مستعتب، ومن فاته الخير بالنهار فعنده بالليل مستعتب» وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (الفرقان: ٦٢).

إخواني... من ضيع منكم قيام الليل فيما مضى.. فليحافظ فيما بقي.. فما في الدنيا لذة إلا في الطاعات... وأحلاها والله قيام الليل في السبرات.. من عاش منكم بلا قيام كيف يعيش.. طوبى لمن نور قبره بقيام الليالي الماضية... وخسر والله من ضيع الليل في النوم والغفلات... لو يعلم الرائد ما فاته وأي مجد هداً أبياته.. لبكى ندماً ما بقي على عظم ما فاته.. لعظم أهميته كان فرضاً على الصحابة العاملين.. فكيف ونحن من الغافلين.. يا أقدم القائمين اركعي واسجدي.. يا نفوس العارفين بغير الله لا تقنعي.. يا ذنوب المستغفرين بالسحر لا ترجعي.. يا أرض الهوى ابلعي ماءك ويا سماء الذنوب أقلعي.. يا خواطر المحسنين بالليل ارتعي.. يا غفلة الغافلين اخسئي.. يا قلوب القائمين اخسعي.. يا غيوم الكسل تقشعي.. إخواني إذا حضر الليل فما منكم أحد إلا وقد دعي.. فطوبى لمن أجاب... وخاب من طرد عن الباب.. نوم السحر معطر برائحة القرآن والقيام.. فلا تفسدوا عبيره بالذنوب والآثام.. إخواني.. من لم يجب ويقم الليل فلا يلو من إلا نفسه.. كم نصح فما قبل النصح.. وكم دعي إلى المصالحة فما أجاب إلى الصلح... كم شاهد الواصلين إلى الله وهو متباعد.. وكم مرت به زمر السائرين وهو قاعد.. يا ليل لا تمض وترقق.. دموع العارفين تدفق.. قلوبهم من ألم الفراق تشقق.. إخواني.. من تكاسل الليلة ونوى أن يقوم الليلة القادمة من أدراه أنه سيوفق.. قلوب المحبين إلى الليل تحن.. ومن ألم

انقضائه تن.. إخواني.. ذهب من الليل الكثير وما قمتم... وقد كتب عليكم ما أضعتم.. وكأنكم بالمشمريين قد وصلوا وانقطعتم.. إخواني.. أما تشتاقون إلى حلاوة المناجاة.. من لم يذق حلاوة نجواهم لم يدر ما الذي بكّاهم.. الخلوة بالله شفاء القلوب ونهاية المطلوب.. خسر والله كل محبوب.. أما تدرون حال القائمين.. تبكي عيونهم.. وتضحك قلوبهم.. صدرهم مشروح وقلوبهم مجروح.

٦- التفكير:

وهو فريضة بعد الفريضة لأمر الله تعالى به: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عَبَسَ: ٢٤). والأمر للوجوب وَقَالَ تَجَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْيَلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (الْعَنَاقُ: ١٩٠). إلى أن قال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الْعَنَاقُ: ١٩١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الآيات: «ويل لمن قرأهن ولم يتدبرهن» وسئلت أم الدرداء عن عبادة أبي الدرداء فقالت: «كان صمته فكراً، ونطقه ذكراً ونظره عبداً» ومن أدام التفكير وصل إلى المعرفة ولو بعد حين. وليس للتفكير وقت محدد ولا مقدار معين ولكن المؤمن يتعاهد نفسه بهذه العبادة الجليلة خاصة عند وجود غفلة أو فتور، وكذلك عند وجود أسباب الفكر من تواجد العبد في خلاء أو عند البحر مثلاً، ولكن على العبد ألا يخلي أسبوعه من فكر... أما التفكير في الموت.. فليكثر منه العبد لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أكثرُوا من ذكر هادم اللذات» والإكثار من ذكر الموت بأن يكون كما قال ابن عمر: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح».

مجاري الفكر:

(أ) ذكر الموت:

وهو سنة مؤكدة بل الإكثار منه سنة مؤكدة ففي الحديث: «أكثرُوا من ذكر هادم

اللذات».

فوائد ذكر الموت؛

❖ سنة مؤكدة ثوابها عند الله كبير وفي الحديث: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» رواه البخاري.

❖ سبب لزيادة الأعمال الصالحة، فمن أكثر من ذكر الموت استعد له وعمل الصالحات بخلاف الغافل عن ذكر الموت.

❖ سبب لتمني الشهادة، فالعبد لو تذكر الموت وشدته وألمه وسكرته، وعرف أن الشهيد لا يجد من ألم الموت إلا كمس القرصة هانت عليه الشهادة وتمناها كيلا يتألم بسكرة الموت، فلو لم يكن في ذكر الموت إلا هذه الفائدة لكفت.

❖ سبب لركة القلب، وقد شكت امرأة إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قسوة قلبها «فأمرتها بذكر الموت فكانت من أرق الناس قلباً» ومن رق قلبه خشع في صلاته، وانتصح بالنصائح واتعظ بالمواعظ.

❖ سبب لكرامة الله لعبده، فربما ألهمه الله قرب وفاته ليستعد بالعمل الصالح أكثر، وشاهد ذلك ما حدث للنبي ﷺ لما قرب أجله أنزل الله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر: ١). فكان بعدها لا يقوم ولا يقعد إلا سبح بحمد ربه. «وأتي رجل من الصالحين في منامه وقيل له تجهز إلى الحج ولست براجع فخرج ومات في الطريق»، «ومرض رجل فطلب الأطباء فقليل له الجنة تزخرف لك فتعبد ثلاثة أيام ثم مات».

❖ من أكثر من ذكر الموت هانت عليه مصائب الدنيا ولم يحزن على ما فاتته ولم يفرح بما جاءه منها، فيتعلق قلبه بالله لا بالأسباب.

❖ من أكثر من ذكر الموت خاف أن يعصي الله فيموت على المعصية، فلا يجد له عند الله يوم القيامة حجة، وإذا وقع في المعصية بادر بالتوبة إلى الله تعالى.

✽ أفضل طريقة لذكر الموت أن يذكر العبد أحبابه وأصدقاءه وأهله الذين كانوا يضحكون معه ويأكلون ويشربون، وكيف كانوا يؤملون في الحياة مثله وقد ماتوا الآن وصاروا تراباً.. فيتفكر العبد في حالهم الآن أهم من أهل الجنة أم من أهل النار... وكيف أنهم لو عادوا لاجتهدوا في الطاعة، فليجتهد هو ولا يغتر بالدنيا وزخرفها، وكذلك يفكر العبد في ألم الموت وشدته، فيعلم أنه لا ينجيه ولا يكون معه أحد إلا الله، فليعلق قلبه بالله لا بالخلقين فإن العبد لا يشغل أثناء موته إلا بما عاش عليه.

(ب) التفكر عند المقابر:

وفي الحديث يقول النبي ﷺ: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم بالآخرة» (رواه مسلم). ويا حبذا لو زارها المرء أسبوعياً فقد أوصاني بهذا بعض العارفين.

حال المؤمن عند زيارة القبور:

✽ يستحضر أن القبور قد ملئت ظلمة على أهلها وكيف أنهم صاروا لا أنيس لهم إلا أعمالهم.

✽ يتفكر في اغترار الناس بالدنيا وعدم اتعاضهم، فكم من مؤمل للعيش وقد كتب من أهل المقابر عن قريب، وكيف أن الإنسان يعمل في الدنيا ويكده مفاخرة للناس ثم يموت وينساه الناس.

✽ يتفكر في كونه لا يدري هل يموت على الإسلام فيدفن في مقابر الإسلام أم على غير ذلك والعياذ بالله والخواتيم مغيبة، ولذلك كان النبي ﷺ يقول إذا دخل المقابر: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» (رواه أبو داود وصححه الألباني)، فانظر كيف قال: «إن شاء الله».

✽ يدعو لأهل المقابر بالرحمة وأن يتغمده الله برحمته إذا لحق بهم، فما أحوجهم والله إلى دعوة صالحة وقد انقطع عملهم.

✽ يختار للزيارة وقتاً للاتعاظ كبعد العصر قبيل المغرب أو بالليل ليكون أنجع في الموعدة.

إخواني.. من لم يتعظ بالموت والمقابر... فقد مات قلبه وما له من جابر.. يا من بدنياه انشغل.. وغره طول الأمل.. الموت يأتي بغتة.. والقبر صندوق العمل.. ما رأيت يقيناً أشبه بشك من يقين نحن فيه.. أيقنتم بالموت وما استعدادتم له.. دخل عليّ المقابر فنظر إلى أصحابه وقال لو نطق أهل المقابر لقالوا جميعاً «تزودوا فإن خير الزاد التقوى».

إخواني.. غاية أمنية أهل المقابر أن يعودوا إلى الدنيا فيصلوا ركعتين أو يستغفروا استغفارة واحدة وأنتم تضيعون الليل والنهار.. أول منازل الآخرة القبر فإن كان سهلاً كان ما بعده أيسر وإلا كان ما بعده أصعب... كم أمل أهل القبور أن يعيشوا مثل تأميلكم..

وسوّفوا بالتوبة مثل تسويفكم... واغثروا بشبابهم مثل اغتراركم.. كانوا يضحكون كما تضحكون ويأكلون ويلعبون... ولا يصومون ولا يقومون.. فكأنني بهم الآن وهم نادمون.. إخواني.. كم من طاعة تركتموها خوفاً من لوم اللائمين... وإذا متم كانوا لكم أول ناسين... ولا يبقى لكم إلا رب العالمين...

أخي في التراب وضعوك... وذهبوا وتركوك.. ولو بقوا معك ما نفعوك.. ولم يبق لك إلا الله وهو الحي الذي لا يموت... زار الحسن مريضاً في سكرات الموت فعاد إلى بيته فقدموا له الإفطار وكان صائماً فقال: لقد رأيت منظرًا لا أزال أعمل له وترك الطعام... الدنيا قطرة فاعبروها ولا تعمروها.. أيكم يبني على موج البحر دارًا... تلكم الدنيا فلا

تتخذوها قرارًا.. إذا أصبحتم فلا تنتظروا المساء.. وإذا أمسيتم فلا تنتظروا الصباح.. ولا تؤملوا في البقاء.. لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت يبينها.. فإن بناها بخير طاب مسكنه.. وإن بناها بشر خاب بانيها.. يا ابن آدم كن في الدنيا كأنك غريب.. فإن الموت قريب.. يا نفس توبي فإن الموت قد حانا.. واعصي الهوى فإن الهوى ما زال فتانا.. يا أهل القبور.. قسمت أموالكم.. وتزوجت نساؤكم.. ويتم أطفالكم.. من ذا الذي بالدنيا غركم.. جمعتم الأموال للأولاد.. وبنيتم الدور للأحفاد.. وتناسيتم يوم المعاد.. فقدتم على الله بلا زاد..

إخواني.. لا تغرنكم الحياة الدنيا كما غرت الأولين.. فوالله ما أنتم بمخلدين.. فها لي أراكم متكاسلين؟!

(ج) التفكير في حال النفس مع الله:

والمقصود من ذلك أن يفكر الإنسان في حال نفسه وكيف أنه ما عرف حق النعم.. فكم عصي.. وكم غفل عن الطاعة.. وكم ترك المستحبات.. وكم فعل المكروهات.. وكم أثر الدنيا على الآخرة.. يحزن على درهم ضاع منه.. ولا يكاد يعبأ بضياع دينه.. لا يستثقل ما يقضيه من أوقات في تحصيل الشهوات.. ويستثقل عشر ذلك الوقت إذا قضاه في الطاعة..

إخواني.. ما فات من الطاعة لا يعوض إلى يوم القيامة، فلو اجتهد من قَصَّر فيما مضى لما عوض ما فات؛ إذ كان بإمكانه الاجتهاد فيما مضى وفيما هو فيه الآن معًا، فمن تدبر هذا المعنى لم ينقطع حزنه... فوا أسفاه على ليالي القدر التي فاتت.. ووا حسرتاه على الأيام الفائتات.. فعدة قليلة هي التي صامت... ووا أسفى على الليالي الباردات.. فقلة فيها هي التي قامت.. كم فاتنا من الأذكار.. وكم اقترفنا من الأوزار... إخواني.. كم

أسأتم الظنون بالآخرين.. وكم كنتم بأعمالكم معجيين.. بل قليلاً ما كنتم مخلصين...
نقش داود ذنبه على كفه لثلاثينسائه.. ولسنا لها بذاكرين...

من منا يزور القبور ويذكر المساكين.. حب المال طغى على النفوس وأشبهاها
الجاهلين... فسدت الأخلاق وانتشر النفاق... وقلّ الخائفون.. وضاع الخشوع
والتوكل... فأين الصالحون!! يسر الله لنا حفظ كتابه... فأين الحافظون!! ويسر لنا
العلم... فأين الدارسون!! إخواني... نفوسكم كسولة فاقهروها على الطاعات.. طوبى
لعبد كانت نفسه لوامة فصارت من المطمئنين.. وأفّ لعبد صار من الغافلين.. كم من
عارف قاد نفسه إلى الله وهي باكية.. فلم يزل بها حتى صارت من الضاحكين... والله
لو أدركتم أعمالكم على حقيقتها... لبيكتم من قلتها... فأه من أحزان لا أجد سلوتها...
إخواني... من قال أنا خير الناس فهو شرهم.. ومن قال أنا شر الناس فهو خيرهم.. من
قال أنا عالم فهو جاهل.. ومن قال أنا جاهل فهو زينهم.. من قال أخلصت فقد راءى..
ومن قال راءيت فهو نورهم^(١).. لا يتقبل الله إلا من المتقين... فليت شعري من تقبل
منهم أعمالهم...

فَضَّلْ

قَالَ الْعَالِي: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحِشْرِ: ١٨).

قال في «الظلال» ما ملخصه: «وهو بيان يفتح أمام العبد صفحة أعماله بل صفحة
حياته، ويمد ببصره في سطورها كلها يتأملها، لينظر ماذا قدّم لغده، وهذا التأمل كفيل
بأن يوقظه إلى مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير، مهما يكون قد أسلف من

(١) المقصود أن يداوم الإنسان على مراقبة الإخلاص في نفسه لا أن يبالغ في اتهام نفسه بالنفاق الأكبر حتى لا
يصل إلى درجة الوسواس.

خير، وبذل من جهد، فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلاً، ورصيده من البر ضئيلاً؟! إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبداً، ولا يكف عن النظر والتقليب».

وقال عمر بن الخطاب: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر».

وقال الحسن: «لا يُلقى المؤمن إلّا يعاتب نفسه، ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشرتي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه».

وقال أيضاً: «المؤمن قوام على نفسه، يحاسبها الله، وإنّا خفّ الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنّا شقّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة».

وقال ابن القيم: «أضرّ ما على المكلف الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال وتسهيل الأمور وتمشيتها، فإنّ هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذا حال أهل الغرور، يغمض عينيه عن العواقب ويمشّي الحال ويتكل على العفو، فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواجهة الذنوب وأنس بها وعسر عليه فطام نفسه».

(هـ) التفكير في الأسماء والصفات:

وهو من أكبر أسباب زيادة الإيمان في قلب العبد ويتحقق هذا التفكير بعدة أمور:

التدبر في معاني الأسماء والصفات وربط معانيها بأحداث الحياة، فيتفكر المؤمن في اسم الله الغني وكيف أن الله يملك ما في السموات وما في الأرض وكيف أنه غني عن طاعة عباده ولذلك خذل من خذل وقدر المعاصي على من قدر، ويتفكر في اسمه الكريم وكيف رزق عباده ملايين الملايين منذ خلق السموات والأرض فأبي كرم هذا!! ويتفكر

في اسمه الرحمن وغيره من الأسماء بهذه الطريقة، وقد زدت هذا توضيحًا في كتاب التفكير والاعتبار. والحمد لله.

يتدبر المؤمن آيات القرآن وخواتيمها التي ذكرت فيها أسماء الله وصفاته ويتفكر في علاقة معاني الأسماء والصفات بمعنى الآيات، ففي هذا من معاني الإيمان ما لا يوجد في غيره، ومن أدمن هذا العمل صار من العارفين بإذن الله، فمثلاً قوله عز وجل في سورة البروج: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ فقله «العزیز» أي: لا يغلب وليس تمكنه للظالمين من الدعاة لضعف قوة الله بل هو العزيز الذي لا يغلب وإنما فعل سبحانه هذا الحكمة يحمدها ولذلك قال: «الحميد» وهذه الحكمة هي تمحيص المؤمنين وزيادة الإيمان في قلوبهم ورفع درجاتهم وغيرها من الحكم.

وهكذا يتدبر المؤمن في سائر آيات القرآن ويتفكر فيها ليعلم معنى الآية نفسها ووجه تعلق الأسماء والصفات بها، وقد زدت هذا توضيحًا أيضًا في كتاب «التفكير والاعتبار» والله المستعان.

(و) التفكير في حال المسلمين:

وهو كذلك من أكبر أسباب زيادة الإيمان في القلب لما يسببه في قلب المؤمن من الرحمة والرقّة والحزن، وربما دعا التفكير في هذا الباب المؤمن إلى الدعاء للمسلمين والمسلمات، والتضرع إلى الله برفع الظلم والبلاء عنهم، فيتأتى للقلب من الفتوحات ما الله به عليم.

وليعلم المسلم أن المسلمين جسد واحد يتألمون لألم بعضهم ويفرحون لفرحهم، ومن لم يهتم بأمهم فليس منهم.

إخواني... الظلم عمّ البلاد... وفي الشهوات غاص العباد... فكم من أسير للشهوات... وكم من عاص في الظلمات... قوموا فأندروا... وخوفوا وبشروا...

ورغبوا ويسروا... فعليكم والله ألقىت المهمات... فما لنفوسكم متكاسلات!!
 حرمان الإسلام منتهكات... وشرائع الله غير مطبقات... وجماعات الخير محبوسات...
 والمنكرات شائعات.. والنساء متبرجات.. إخواني... قد آن الأوان لأن تقوموا بتبليغ
 الإيمان... بئس العبد من تكاسل وهو حامل للقرآن... لا تكثروا النوم فلا مكان
 لنومان.. وانشروا الخير في الأرض.. وأنقذوا الغرقان.. لا راحة لقائد.. فليس الواجد
 كالفاقد.. إذا فرط الدعاة فماذا يفعل المذنبون.. وإذا تكاسل العلماء.. ضاع الجاهلون..
 إخواني.. اصطفاكم الله لمهمة الأنبياء.. فمن تكفل بالمهمة.. كان في الآخرة من الفائزين..
 ومن فرط كان من الخاسرين... إخواني.. أراضيكم مغصوبات.. وجّل أعمالكم
 سيئات.. ثم ترجون الصلاح.. هيهات هيهات.. حملكم الصحابة أمانة الدين.. فختتم
 الأمانات.. وأمرتم بنصح الناس.. فخشيتهم اللائمات.. وألهتكم الدنيا.. فكثرت
 المنكرات.. وكثرت أعدادكم.. فقلّت الهِمّات.. لا فرح لكم.. حتى تخرجوا الناس من
 الظلمات.. ولا راحة لكم.. حتى تؤدوا ما حملكم الرسول من أمانة.. بلغوا حديثاً أو
 بعض آيات^(١).. ابذلوا الجهد.. ولا تتعجلوا الثمرات.. ستستريحون عند دخول الجنة..
 ورسولكم ينتظركم على جسر جهنم دون الظلمات... ومع ذلك فتعبدكم في الدعوة
 راحة، وحياتكم بالدعوة سعادة فوق اللذات.

(ز) التفكير في الخواتيم:

فإن الخواتيم مغيبة ولا يدري أحدنا بما يختتم له فالله المستعان، وفي الحديث: «قلوب
 العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» (صحيح سنن ابن ماجه)،
 وكان النبي يكثّر من قوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» (صحيح الجامع
 الصغير)، ولو تفكر مؤمن في هذا المعنى حق التفكير لما سعد ولما استراح حتى يدخل

(١) أعني حديث: «بلغوا عني ولو آية».

الجنة، ومن أجله قال ابن الجوزي: «لولا الغفلة لذهب عقلي من الخوف» ومن أجله كان سفيان يبول الدم.

فائدة معرفة هذا المعنى:

✽ ألا يفرح العبد بطاعة ولا يعجب بها؛ إذ ليس الفلاح أن تفعل الطاعة ولكن الفلاح أن تموت على حسن خاتمة.

✽ أن يزداد خوف العبد من الله، فيزداد إيمانه ويرق قلبه وتبكي عينه، فينال الخير في الدنيا والآخرة؛ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

✽ أن يحذر العبد من المعاصي، فهي أكبر أسباب سوء الخاتمة، وقد قالوا: «المعاصي بريد الكفر».

أسباب سوء الخاتمة:

✽ أن يفعل العبد الطاعة رياء أو يترك المعصية خوفاً من الناس، فمن أطاع الله وترك معصية الله، فليكن ذلك لله.

✽ أن يصرَّ العبد على معصية من المعاصي، ولو كان يفعل من الخير ما يفعل، فمن فعل معصية فليتب إلى الله ولا يصر عليها.

✽ لحيث في نفس العبد لا يعلمها إلا الله، وهذا هو أخطر أسباب سوء الخاتمة وأخوفها، فلا يعلم ما في نفوسنا إلا الله ولا يظلم ربك أحداً.

إخواني.. أخبرتم أنكم على الصراط واردون.. فمن أخبركم أنكم صادرون.. فاضحكوا قليلاً وابكوا كثيراً.. كم من رجل بدأ حياته بالطاعات.. ثم ختم له بسوء الخاتمة.. كلكم تحت هذا الخطر.. فأين العيون الباقيات.. ذنوبكم تؤهلكم لهذا.. فأين القلوب الخائفات.. لا يعذب الله قلباً وعى كتابه.. فأين الذاكرات الحافظات..

ألم تعلموا.. لا يحترق إهاب فيه القرآن.. فأين العقول الواعيات^(١)... لا يعذب الله حبيبه.. وما أحبه لنفوس إليه داعيات^(٢)... من علم الخير وجبت له النجاة... ألم نخبرنا أنه يصلي على النفوس المعلمات^(٣)... إخواني.. عليكم بكثرة ذكر الله.. فقد ثبت أنه أعظم المنجيات^(٤).. ولا تيأسوا فيوم القيامة جُلُّ الرحمت.. ولا تعجبوا بعمل... فشرط قبوله قاسيات... ألم يقل لكم قليلُ الشكور^(٥)... وقليلٌ من يعمل الصالحات^(٦)... إخواني.. أيما نفس خافت في الدنيا.. فهي غداً من الآمات.. والعكس بالعكس.. أخبار صحيحات^(٧)... اعرضوا أنفسكم على كتاب الله.. فالفاجر في النار.. والطائع في الجنات.. الخواتيم مغيبة.. ولا يقبل العمل إلا من نفوس متقيات.. ما أعظم الخطر.. لو وجدت نفوس عاقلات.. وما أسهل اليأس.. لولا ما وعدنا من الرحمت..

(ح) التفكير في أقدار الله؛

والمقصود من ذلك أن يفكر الإنسان فيما مر به من أحداث وأقدار، فيرى الله قد اختار له الخير فيما يظنه العبد شراً، ويرى أنه قد يسر له حيث ظن العبد الأمر صعباً.

فوائد هذا العمل؛

❖ هو أكبر أسباب زيادة الإيمان بأسماء الله وصفاته وترسيخ اليقين بأن الله حكيم رحمن رحيم لطيف خبير، فتزداد معرفة العبد بالله.

(١) أعني حديث: «لو كان القرآن في إهاب ثم أدخل النار لما احترق» فقد فهم منه العلماء أن الصدر الحافظ لكتاب الله لا يحترق في نار جهنم ولا يدخلها.

(٢) أعني قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فترجو للداعية أن تحسن خاتمتها.

(٣) أعني حديث: «إن الله وملائكته حتى الحيتان في البحر ليصلون على معلمي الناس الخير».

(٤) أعني حديث: «ما عمل آدمي عملاً قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله».

(٥) أعني قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

(٦) أعني قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

(٧) أعني حديث يقول الله عز وجل: «لا أجمع على عبدي أمنين ولا خوفين فمن أمني في الدنيا أخفته في الآخرة ومن خافني في الدنيا أمنت في الآخرة».

✽ أنه يزيد من يقين العبد في الله وثقته فيه، فيزداد توكلًا عليه؛ إذ لا يقدر الخير إلا الله.

✽ أنه سبب رضا العبد عن أقدار الله حتى فيما يظهر مكروها، فقد تعود من أفعال الله به أنه يقدر له الخير حتى فيما يظهر بخلاف ذلك.

✽ أنه يزيد من حب العبد لله؛ إذ المحبة تنمو على سواحل المنة، وذلك حيث يرى أن الله ييسر له الخير ويقدر له الخير.

إخواني.. ما يفعل الله بعذابكم.. وهو الذي خلقكم ورزقكم.. فمن الذي اختاركم للإسلام.. أم من الذي جعلكم من أمة خير الأنام.. تفكروا.. لو كنتم لمنهج أهل البدعة منتحلين.. فاشكروا أن جعلكم لأهل السنة منتسبين..

إخواني.. من ذا الذي جعلكم في ليل رمضان تقومون.. بينما الفجرة يغنون ويفسقون.. ومن ذا الذي جعلكم في نهاره حقًا صائمين.. وجعل العصاة على التلفاز عاكفين.. من ذا الذي ألهمكم فائدة علم التوحيد.. بينما دعاة آخرون يقعون في التنديد.. من ذا الذي ما نقلكم من مكان أو زمان.. إلا كان له عليكم أعظم إحسان..

إخواني.. إن تتأملوا أقدار ربكم.. تدركوا أنه الرحمن.. فاشكروا نعمه وفضله... تأمنوا النقصان.. الأمور بيد الجبار.. فلا تتسخطوا الأقدار.. وأبشروا فربكم غفار.. لا تلوموا من أساء إليكم.. فبذنوبكم سلط عليكم.. كونوا من الله على يقين..

ولا ضرر عليكم بغير مين^(١).. القادر معكم ومع دعوتكم.. فلا تحشوا الظالمين.. من وثق في المؤمن^(٢)... فلا يخف على الدين... ومن عرف الرب... أيقن بقرب التمكين^(٣).

(١) مين: أي شك.

(٢) المؤمن: هو الله الذي ينصر المؤمنين ويحفظهم ويؤمنهم من كل خوف وسوء.

(٣) وذلك لشدة الظلم والبلاء والضعف الواقع على المسلمين وقد قالوا: إذا اشتد الكرب هان وأشد ساعات الليل ظلمة هي الساعة التي يليها الفجر.

إخواني.. لما رأى ربكم اعتمادكم على الأسباب... مكنَّ منكم أعداءكم ليرى من تاب.. فإذا تكامل ضعفكم.. كمل توكلكم على ربكم.. وحينئذ يأتيكم نصركم.. الدين دينه فهو المؤمن.. والملك ملكه فهو المهيمن.. إخواني.. اختلط الحابل بالنابل.. والمؤمن بالمنافق.. والداعية بالكسلان.. فإذا تميز الصف.. فانتظروا نصر الرحمن.. لا تفقدوا الثقة في ربكم.. فهو والله المنان.

(ط) التفكير في المخلوقات؛

وهذا من أكبر أسباب زيادة الإيمان في قلب العبد، فالعبد كلما تفكر في عجائب مخلوقات البر والبحر من نبات وحيوان كلما ازداد تعظيمه لله ولا بد، وأنصح الإخوة بسماع وقراءة الكتب والأشرطة والـ C. D التي تتكلم عن الإعجازات العلمية في القرآن وعن عجائب قدرة الله في الكون.

كيفية التفكير في مخلوقات الله؛

- ١- يتأمل العبد عظمة الله كيف خلق فسوى وكيف قدَّر فهدى، فكل شيء بتدبير الله وحكمته، فسبحان الحكيم.
- ٢- يعرف أن هذه الأشياء يستحيل أن تأتي من قبيل الصدفة فتباً لمن أنكر وجود الله.
- ٣- يوقن أن الله الذي خلق الكون بهذه الدقة والنظام لا يفوته شيء، فأعماله محصاة عليه عملاً وعملاً ولا يظلم ربك أحداً.
- ٤- يستحضر علم الله الواسع بكل هذه المخلوقات وبكل ما يتعلق بها، فليس ذرة في الكون كله علويه وسفليه في البر أو في البحر إلا ويعلمها الله.
- ٥- يستحضر أنه في ملك الله كلا شيء، فهو نقطة في بحر فلا يتكبر على عباد الله.

٧- الاهتمام بأعمال القلوب: وهي:

- | | | |
|--------------|--------------|-------------|
| (أ) الزهد. | (ب) الصبر. | (ج) الرضا. |
| (د) الشكر. | (هـ) اليقين. | (و) الصدق. |
| (ي) التوكل. | (ن) الخشوع. | (ل) المحبة. |
| (ك) التوبة. | (ر) الخوف. | (ز) الرجاء. |
| (ع) الإخلاص. | | |

وكيف لا يكون الاهتمام بأعمال القلوب أساساً من أساسيات الطريق وهي التي تميز بين أبناء الطريق، فأخوفهم وأحبهم لله أفضلهم عند الله، وأشدّهم توكلاً وزهداً خيرهم عنده!!؟

أهمية أعمال القلوب:

١- ثواب تحقيقها عظيم جداً، فقليلها يفوق كثير عمل الظاهر، وانظر إلى قاتل التسعة والتسعين نفساً كيف دخل الجنة بأعمال القلوب (التوبة) مع كون كثير من الناس يعملون أعمالاً ظاهرية ويدخلون النار لحديث: «فيُناشد المؤمنون ربهم في قوم كانوا يصلُّون ويصومون ويحجُّون ليُخرجهم من النار» (رواه مسلم).

٢- إثم تركها خطير جداً، فمن ترك الحد الأدنى من أعمال القلوب الواجبة خرج من الملة، كمن اعتقد أن الله ظلمه بتقدير البلاء عليه، وكذلك من انعدم من قلبه الخوف من الله، فكلاهما كافر.

٣- أن الناس لا يتفاضلون إلا بأعمال القلوب لا بالعلم وحده ولا بالعمل وحده، يقول أبو الدرداء: «لئن حلفتُم لي أن فلاناً أزهكم لأحلفن لكم أنه خيركم»، وقال النبي ﷺ: «أفضل التابعين رجل يقال له أويس القرني» (رواه مسلم)، وسعيد بن المسيب أعلم منه بكثير.

٤- أن العبد لا يذوق حلاوة الإيمان ولا يتدبر القرآن حق التدبر إلا بتنمية هذه الأعمال وزيادتها؛ قال بعض العباد: «حرام على القلوب أن تذوق حلاوة القرآن حتى تزهد في الدنيا».

أسباب زيادة أعمال القلوب:

✽ التفكير بأنواعه السابقة التي ذكرناها.

✽ تدبر آيات القرآن وإمرارها على القلب وتكرارها وفهم معانيها.

✽ التزام الأعمال الظاهرة كإطلاق اللحية أو تقصير الثياب وغيرها، فالتزام الأعمال الظاهرة سبب لصلاح الباطن، وقد بين ﷺ ذلك بقوله للصحابه عند تسويتها للصفوف: «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»؛ فجعل اختلافهم الظاهري سبباً لاختلاف القلوب وفسادها.

✽ محاسبة النفس على الدوام ومراجعة هذه الأعمال فيها.

✽ تعلم العلم الشرعي والاهتمام به، فهو من أكبر أسباب تنمية أعمال القلوب.

✽ كثرة الدعاء بتزكية النفس وصلاح القلب، فالله هو الموفق.

✽ مراجعة العبد لخواطره ليعرف آفات النفس وعيوبها على ما سنذكر إن شاء الله.

✽ قراءة العبد لسير السلف الصالح ومداومته على ذلك مع محاسبة نفسه ومطالبته بالافتداء بهم.

✽ متابعة العبد لأقوال النبي ﷺ وأفعاله مع الفهم لروحها دون مجرد الالتزام بظاهرها على ما أشرت في الفصل الأول، والله الحمد.

أعمال القلوب:

(أ) الزهد:

وهو أهم أعمال القلوب وأكثرها فائدة لصلاح النفس، وبسببه تأتي الأعمال الأخرى بإذن الله، وفي الحديث: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» (صحيح الترغيب والترهيب).

❁ وحقيقته قصر الأمل وترك كل ما يشغل عن الله أو كل ما يلهي عن العبادة.

❁ والزهد منه الواجب وهو الزهد في الحرام، ومنه المستحب وهو ترك الفضول من الحلال، وأعلى منه ترك كل ما يشغل عن الله.

❁ وأحسن ما قيل فيه أن يكون العبد بما في يد الله أوثق منه بما في يده، وأن يكون عند نزول المصيبة أرغب منه في ثوابها لو لم تصبه.

ما يعين العبد على الزهد:

١ - الأنفة من مشاركة الفساق وأهل الخسة، فالدنيا كالخش لا يدور حولها إلا أصحاب الدنيا.

٢ - العلم بأن ما يناله من حظوظ في الدنيا إنما هو من نصيبه في الآخرة.

٣ - أن يعلم أن الرغبة في الدنيا تضع الوقت وتنقص الثواب كما أنه سيسئل يوم القيامة عن كل نعيم في الدنيا، فالتقلل منه أفضل.

٤ - أن يقرأ سيرة رسولنا ﷺ وسير أصحابه والسلف الصالح ليعلم ما كانوا عليه من زهد في الدنيا؛ ليكون ذلك باعثاً له على الاقتداء بهم.

أقسام الناس في الزهد:

١- من رزقه الله القناعة وبغض الدنيا طبعاً فهو يستنكف من كثرة الطعام والسعي وراء الدنيا لدناءتها؛ كما قيل لبعض الزهاد: «ما الذي زهدك في الدنيا؟ فقال: قلة وفائها وخسة شركائها»، فهذا على خير، إذ رزقه الله بغض ما يبغضه الله ولهذا الشخص عدة تنبيهات:

(أ) لا تغتر بزهدك فهو عن طبع لا عن تكلف، فخير منك من كانت نفسه تتوق إلى الشهوات، فأدبها وهذبها فهو خير منك لو تساويتما في بقية أعمال القلوب.

(ب) ما أنت فيه نعمة، فاشكر الله عليها كي يزيدك منها، واستعن بالله على دوامها.

(ج) ادع الله أن يعين إخوانك المسلمين ذوي النفوس المتعلقة بالدنيا - ادعه - أن يعينهم كما أعانك.

٢- مَنْ طبع على محبة الدنيا والتعلق بها لكنه إذا بيّن لنفسه حقيقتها زهدت وصارت كالأول، فهذا على خير أيضاً، وهو أفضل من الأول لو تساويا في أعمال القلوب الأخرى.

٣- مَنْ طبع على محبة الدنيا وإذا نصح نفسه بالزهد أبت نفسه عليه ولكنه بعد مجاهدة يصل إلى تأديبها، فهذا خير من السابقين لو نجح في تأديب نفسه طالما كان مثلهم في أعمال القلوب الأخرى.

٤- مَنْ هو مثل السابق ولكنه لا يستطيع إقناع نفسه بالزهد وكلما جاهدتها عادت وهذا من أصعب النفوس علاجاً، فنقول أولاً: لهذه المعارضة الشديدة من النفس أسباب نذكرها ثم نذكر بعدها بإذن الله كيفية العلاج.

أولاً - أسباب هذا المرض - أعني التعلق بالدنيا - :

- ١ - شعور نفس العبد بأنها ستحرم وستتعب لو تركت شهواتها فتأبى وتستعصي.
- ٢ - وجود أغراض وحظوظ للنفس من زهداها كالحصول على السعادة والراحة وكمراة الناس لا أنها تطلب من وراء ذلك إرضاء الله.
- ٣ - نشأة النفس وتربيتها منذ صغرها على محبة الدنيا والتعلق بها، فيشق على النفس ترك مألوفها.
- ٤ - اهتمام النفس بكلام الناس ونظرهم إليها وتعليق القلب بهم.
- ٥ - الفراغ الديني لدى العبد، فلا يكاد يشغل نفسه بأمور الدين المهمة والنافعة.
- ٦ - عدم معرفة العبد باستحالة الوصول إلى المعرفة مع تعلق القلب بالدنيا وبأنه يصعب الجمع بين الدنيا والآخرة.
- ٧ - الأسباب الأخرى التي ذكرتها ابتداء عند الكلام على ما يعوق النفس عن بداية الطريق من قلة الهمة وغيرها.
- ٨ - عدم معرفة العبد بأن ما هو فيه نعمة لو استغلها وفهم حكمة الرب سبحانه.
- ٩ - عدم معرفة العبد بحقيقة الزهد الذي هو مطالب به.

ثانياً - كيفية العلاج :

- ✽ والعلاج يكون بمداواة أسباب التعلق بالدنيا، فأما عن الأسباب الأولى للتعلق بالدنيا فقد رددنا عليها بالتفصيل عند الكلام على عوائق سلوك طريق المعرفة.
- ✽ وأما عن السبب الرابع وهو اهتمام النفس بكلام الناس، فهذا داء قد انتشر وذاع بين الناس إلا من رحم الله، وأقول لهؤلاء: من التمس رضا الله بسخط الناس رضي

الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، هكذا قال الرسول ﷺ، ولكن لقلّة اليقين في قلوب الناس صاروا لا يعملون بهذه الأحاديث، ثم أقول لهم: رضا الناس غاية لا تدرك فلو أرضى الإنسان واحداً لأسخط آخرين ولكن إرضاء الله يدرك بإذن الله ثم لماذا يهتم الإنسان بكلام الناس؟ وسيموت وحده ويدخل قبره وحده وسيسئل وحده؟؟ وكأني والله بهؤلاء الذين تركوا الواجبات من أجل الناس وكلامهم - كأني بالناس يعاملونهم على خلاف ما أمّلوا، وكأني بالناس يسخرون منهم ولا يعباؤون بهم على خلاف ما أمّلوا.. فالقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء.. وماذا سيكسب الإنسان لو أرضى الناس وخسر الآخرة؟ أم ماذا سيخسر لو أسخط الناس وكسب الآخرة؟!

❖ وهذا الاهتمام الزائد بكلام الناس إنما هو لقلّة اقتناع العبد بعظم وأهمية ما يطلب، فلو أدرك العبد أن التزامه باللحمة أو بتقصير الثياب أو اهتمامه بالدين والدعوة إلى الله - لو أدرك العبد أن هذا ما ينبغي أن يكون الناس جميعاً عليه لدعاهم إلى هذه المبادئ والطاعات السامية فضلاً عن أن يشعر بالخزي والعار وهو ملتزم بها، وكذلك الذي ترك الربا وترك استماع الأغاني ومشاهدة الأفلام، لو علم وأيقن أن ما هو فيه هو الذي ينبغي أن يلتزم الناس به لدعاهم إليه فضلاً عن أن يشعر بالنقص أو بالشوق إلى مثل هذه الدنيا والله المستعان.

❖ وكذلك الذي صار لا يهتم بالتأنق الزائد في الملابس والمطعم والمسكن وجعل الهم همّاً واحداً وهو العبودية لله - لو علم هذا العبد أنه ينبغي أن يكون الناس جميعاً هكذا لما وجد الحرج والضيق في الزهد أبداً.. فعلاج هذا المرض أعني الاهتمام بالناس.. علاجه بانتظام العبد مع الإخوة الدعاة؛ يحضر مجالسهم ودروسهم ويدعو إلى الله معهم ليتغير مفهومه القاصر ولتطمأن نفسه بوجود أناس على طريقته؛ فيثبت ولا يتزعزع، قَالَ الْعَالِي:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ وعليه كذلك بقراءة سير السلف الصالح وكيف كان اهتمامهم بالآخرة ليعلم أن حالهم هو الحال الذي ينبغي للناس جميعهم التزامه.

﴿أما عن الفراغ الديني، فهذا أيضًا سبب لتعلق الناس بالدنيا، وهذا والله حال كثير من الناس، فهو يذهب إلى العمل ثم يعود فيأكل ويشرب وينام فإذا استيقظ - إن كان من أهل الدنيا - قضى الوقت في مشاهدة التلفاز والأغاني حتى ينام ثم يستيقظ إلى عمله وهكذا حياته، فإن كان من أهل الدين عاد من عمله فأكل وشرب ثم ينام ثم يستيقظ إلى صلاة المغرب، فلا يجد لنفسه عملاً فإذا به يأكل ثانياً أو يقضي وقته في الكلام المباح التافه وربما جره إلى الحرام حتى ينام فيستيقظ للفجر ثم ينام بعد الفجر حتى وقت العمل وهكذا يومه، فهو لا يعرف إلا عمله وأكله.. نعم يحافظ على الواجبات ولكنه يؤديها خاوية من المعاني الإيمانية، فصلاته بلا خشوع وذكره وقراءته للقرآن بلا تدبر.. لا يقوم الليل ولا يصوم النهار.. وهذا والله حال كثير من المنتسبين للالتزام فضلاً عن بقية الناس والله المستعان.. فعلاج هذا الفراغ بشغل الوقت بطلب العلم وحضور دروس العلم وقراءة كتب العلم، وكذلك بالإكثار من النوافل، فيجاهد العبد نفسه في قيام الليل وصيام النهار وتدبر الأذكار والخشوع في الصلاة، ويبدل كل ما يمكنه لإصلاح نفسه.

﴿وأما عن جهل العبد بحقيقة أمر الدنيا والآخرة، فنقول: هذه مسألة هامة ينبغي التنبيه لها، فبعض العلماء قال: لا يستطيع العبد الجمع بين الدنيا والآخرة وبعضهم قال: من التزم بطاعة الله نال الدنيا والآخرة ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، فنقول: لا تعارض بين أقوال العلماء، فأما من قال: لا استطاع الجمع بين الدنيا والآخرة، فإنه يقصد أن حصول العبد على الدنيا وشهواته لا ينال مع حسن حال الآخرة؛ إذ ربما منع الرجل من وظائف كثيرة بسبب لحيته، وربما منعت المرأة من تعليم البنات في المدارس لتقايها وربما عرضت للرجل أعمال

ووظائف عائدها المادي يزيد على حاجته ولو عمل بها لترك حضور دروس العلم ولترك حفظ القرآن ومراجعته.. وربما دعت النفس العبد إلى كسب المال من الحلال والحرام لينال الدنيا، وحتى لو كان في المال شبهة لكان الحصول عليه من هذه الطريق ينافي حال طالب الآخرة.

❖ وأما من قال من العلماء: من التزم بطاعة الله نال الدنيا والآخرة، فهم يقصدون أن الله سيبارك له في رزقه، فيكفيه القليل من الدنيا، وسيبارك له في وقته، فلو كان طالباً يذاكر ويبذل المجهود المطلوب فإنه يلتحق بأحسن الجامعات مع أنه قضى أوقاتاً في صلاة الجماعة وحضور دروس العلم وقراءة الأوراد والأذكار ولم يقض أهل الدنيا هذه الأوقات إلا في المذاكرة، ولكن الله بارك لهذا الطائع بل ربما تفوق على أقرانه، وكذلك طالب المال الحلال الطائع يبارك الله له في عمله فيكسب في وقت قليل ما لا يكسبه غيره في وقت كثير.

❖ فنقول لمن ترك الزهد في الدنيا ظاناً أنه لو اهتم بفضول المباح يظن أنه سيصل إلى معرفة الله نقول له: الدنيا والآخرة صَرَّتَانِ فخذ إحداهما ودع الأخرى، وأقول له: القلب المتعلق بالدنيا وشهواتها قريب من الشيطان بعيد عن الرحمن والعكس صحيح؛ إذ القلب الذي يهتم بالدنيا يفرح لمجيئها ويحزن لفواتها، فلا يكاد يتفرغ لمحبة الله والأنس به، فقلبه يجول في المأكّل والتأنق في الملبس والمسكن وركوب أفخم السيارات، فكيف يصلح له مع هذا أن يتفكر في أحوال قلبه وخشوعه وإخلاصه وتوكله ويقينه؟ هذا مستحيل.. ثم هذا المحب للدنيا بطنه بالأكل ثقیل وجسده عن العبادة متكاسل، فلا يكاد يعرف غير النوم والكسل، فكيف يتفرغ للعلم والعبادة؟؟ فالمواعظ والعبادات لا تكاد تنجع إلا في النفس العالية غير المتعلقة بالدنيا.

✽ أما عن معرفة العبد بأن ما فيه نعمة، فذلك لأن بعض النفوس لا تكاد تعمل وتسعى حتى تشعر بالثقة في نفسها وبأنها على خير، وكم من نفوس أعرفها هذا طبعها، ولكن العبرة بفهم الإنسان لنفسه ومعرفته بطبع نفسه..

فهذه النفس ربما تركت طريق الزهد بسبب ما تجد في نفسها من حب للشهوات، فإذا بها تياس من الصلاح لما ترى من كثرة التنكب عن طريق الزهد.. فأقول لهؤلاء: لا يختار الله لعبده المؤمن إلا الخير، وبإمكانكم أن تستغلوا ما أنتم فيه لتنالوا أعظم الثواب؛ إذ لا يوجد إثارة لمن لا يجد في نفسه حباً للدين.. فهذا الذي رغب عن الدنيا طبعاً سوف تجود نفسه بالدنيا وإعطائها للغير، فلا يتصور منه إثارة؛ إذ الإيثارة الحق أن يؤثر الإنسان غيره مع وجود حب عنده لما يؤثر به **قَالَ الْعَالِي: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾**.

✽ بل وأعظم من ذلك أنه ربما ابتلى الله العبد بهذا لينجح في تركية نفسه ولو بعد حين، فيكون حجة على من ابتلى مثله ولم ينجح في إصلاح نفسه، بل وأعظم من ذلك أنه ربما كان هذا المبتلى الذي يحب الدنيا -ربما كان ذا عقل وفطنة وحسن تحليل للنفس وإرادتها، فيكون الله قد اختاره ليكون إماماً للناس بعدد، فيقول لهم: كان بي كذا وكذا من الإرادات ففعلت كذا وكذا حتى وصلت، فيكون دليلاً عملياً لكل من كان في مثل حاله.. فسبحان من يتبلى العباد لنفعهم ونفع غيرهم والله المستعان..

✽ أما عن عدم معرفة العبد بحقيقة الزهد الذي هو مطالب به، فأقول لمن هذا حاله: ليس الزهد أن تترك ما تحبه نفسك من مأكول وملبس، ولكن الزهد أن تنال ما تحبه بقناعة واعتدال دون إسراف أو مبالغة، وأن تكون حين تتناول ما تحب نأوياً إعطاء نفسك ما تريد لتقوم بالطاعة كما يجب؛ كما قالوا: «اعلف الدابة ثم احمِل عليها» وكذلك تنوي الاستجابة لأمر الله: **﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾** كما أوضحت في كتاب التفكير؛ إذ الطيبات التي خلقها الله إنما خلقها لعباده المؤمنين ليتمتعوا بها ويشكروا ربهم عليها

فهو كريم وشكور، وأضرب لهذا مثلاً - والله المثل الأعلى - فأقول: تخيلوا أن كريماً من البشر أقام مائدة عظيمة وصنع فيها من كل ألوان الأطعمة والأشربة ثم دعا الناس إلى الأكل منها ليتمتعوا، فيسعد هو بذلك؛ إذ الكريم يسعد لإسعاد الناس ثم بعد هذا إذا ببعض الحاضرين يرفض الأكل منها، فكيف يكون حاله عند هذا الكريم؟ فكذاكم خلق الله لكم طيبات الرزق لتتمتعوا بها وتشكروه عليها فهو كريم يجب أن ينعم على عباده، ويجب أن يشكروه، فلا تخالفوا مراد ربكم بزعمكم أنكم زاهدون.

فالزهد إذاً أن يأكل المرء من الطيبات دون إسراف ودون جشع وطمع أو بمعنى آخر يأكل من كل شيء ولا يشبع من أي شيء، وهذا هو الزهد الصعب، فليس يشق على العبد أن يترك أكل الطيبات بالكلية فربما لم يعرف طعمها، لكن الزهد الحقيقي أن تذوق النفس الطيب وتعرف حلاوته ثم لا تشبع منه فليس الواجد كالفاقد، كما أنَّ حال العبد يتغير فربما افتقر بعد غناه فلم يجد ما يشتري به الطيب مع معرفته بحلاوة طعمه، فيكون صبره هو الصبر الحق بخلاف من لم يكن يأكل الطيبات أصلاً، فليس صبره كذلك.

فإن قيل: فلم إذاً لا أشبع من الطيبات؟ قلت: لا بأس أن تشبع أحياناً للحاجة كمزيد جوع أو إرضاء لأخ لك في الله قد دعاك وتكلف لك ويفرح بأكلك من طعامه لكن لا تفعل هذا دون حاجة شرعية بل ولا تداوم على هذا؛ إذ المداومة على الشبع تقسي القلب وتسبب له الغفلة ونسيان الفقراء والمساكين، وفي الحديث: «وياك والنتعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين» (صحيح الجامع).

كيف يعرف العبد الزهد في نفسه من عدمه؟

١ - الزهد: عمل قلبي ليس بلبس الخشن وأكل الغليظ إنما هو ما قام في قلب العبد من عدم الرغبة في الدنيا ولذاتها.. ومعرفة الإنسان لذلك في قلبه إنما تكون بمتابعة

ومراقبة الخواطر والإرادات التي تعرض للنفس ومن خلالها يحدد العبد حقيقة زهده من عدمه والناس في هذا على أقسام:

(أ) من يترك التأنيق في أمور الدنيا من مأكّل وملبس ولكنه يجد في نفسه معارضةً وحزنًا وتأسفًا، فهذا متزهد وليس بزاهد، فالزهد أن تسمح النفس بهذا دون معارضة، وهذه بداية الطريق.

(ب) من تسمح نفسه بهذا تعلقًا بأن الله سيعوضه في الجنة عما تركه من الدنيا، فهذا أفضل من الأول بشرط ألا يكون معجبًا بعمله، إذ المعجب حابط عمله.

(ج) من تسمح نفسه بهذا طواعية وهو يرى أنه لم يفعل شيئًا؛ إذ من ترك التراب لأجل الذهب لا يقال عنه ترك شيئًا، فكذلك الدنيا أحقر من التراب والآخرة أعظم من الذهب، وهذا أعلى درجات الزهد.

(د) من يترك الدنيا وطلبها حياءً من الناس خشية أن يلام، وهذا متصور فيمن صحب زهادًا ويخشى أن يكون ملومًا بينهم، فليس هذا زاهدًا أصلاً، وكذلك من ترك الدنيا لعدم قدرته على الحصول عليها فليس هذا بزاهدٍ أيضًا؛ إذ الزهد أن تجد ما تطلب به الدنيا ثم لا تطلبها إلا من نوى صادقًا أنه متى كانت عنده المقدرة لم يطلب الدنيا، فهذا زاهد أيضًا.

✽ فمتى وجد العبد في نفسه خواطر وإرادات ومنازعات إلى الدنيا كأن يشتاق إلى شهواتها ويحب زخرفها من ملبس أنيق ومأكّل لذيذ يفرح بوجوده ويحزن لفواته، وكلما رأى ذا سيارة فارهة تمنى لنفسه مثلها، وكلما مر بطعام شهى تمنى أن لو أكله، فنفسه تشتاق إلى المال وكثرته وتحب الجاه والسلطان وهو كذلك يفكر كيف سيكون غنيًا وكيف يحصل على المال.. ويتمنى أن لو مات من يرثهم ليحصل على المال..

متى وجد العبد ذلك في نفسه، فليس هذا بزاهد بل هو من طالبي الدنيا، فإن قيل في الحديث: قال رجل يا رسول الله: «إن أحدنا يحب أن يكون نعله حسنًا وثيابه حسنة» ولم ينكر عليه الرسول ﷺ وفي آخر يقول الصحابي: «قدمت لرسول الله ذراعًا وكانت تعجبه» وفي ثالث: «إن الله جميل يحب الجمال»؟ قلت: هذا هو الفارق بين الصوفية وبين أهل السنة في حقيقة الزهد، فليس الزهد أن يترك العبد الملبس الحسن والمأكّل الحسن، وإنما الزهد الذي نعينه هو أن ينال العبد ما ينال من الدنيا بيدنه أما قلبه فهو متعلق بالآخرة.. نعم يلبس الملبس الحسن ويأكل المأكّل الحسن ولكن بلا إسراف ولا مخيلة، وكذلك لا يداوم على هذا، ففي الحديث: «البذاذة من الإيمان» وفي الحديث: «نهى رسول الله عن الترجل إلا غبًا» وفي آخر: «إياك والتنعّم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعّمين» فطريق الجمع بين هذه النصوص: أن نقول: لا غضاضة أن يجد الرجل في نفسه حب الملبس الحسن والفرح بالطعام الذي يحبه أو الفرح بالمال لكن بشرط ألا يحزن لفوات ذلك وفقده، فإن قيل: وكيف يعرف ذلك؟

قلت: بما يراه من حال نفسه، فإذا رأى نفسه إذا كثر المال أكثر من التصديق به ولم يكنزه، وإذا قلّ لم يحزن إلا على ما فاتته من الصدقة والعمره والبر، فهو الزاهد حقًا، وكذلك إذا وجد نفسه كلما قدم إليه طعام أكله طالما كان من عادته أن يأكله ولم يطلب أعظم ما يشتهي ولم يعب هذا الطعام فهو الزاهد حقًا، فإن وجد في نفسه حزنًا لفوات الطعام المشتهى ولو ما لمن قدم له هذا الطعام، فليس هذا بزاهد وحبه للطعام مذموم، وكذلك إذا وجد العبد نفسه إذا ترك لبس أحسن ما يجد أو ترك ترجيل شعره لو وجد في نفسه الحزن لذلك بحيث لا تكاد تسمح نفسه بترك ترجيل شعره وترك ملبسه، فليس هذا بزاهد، فإن وجد في نفسه السباحة وعدم الغضاضة بترك ذلك فهذا زاهد.. فالزاهد هو الذي لا يبالي بما أكل ولا بما لبس.. نعم تفرح نفسه فرحًا طبيعيًا جبليًا بالأكل الحسن

والملبس الحسن، ولكن لا يتعلق قلبه بهما ولا يحزن لفواتهما.. فهو إن آتاه الله المال فرح لأنه سيسدد حاجة الفقراء والمساكين وسيحجج ويعتمر، وإن ابتلاه الله بالكفاف فرح لقيامه بعبودية الصبر والرضا، وفرح أيضًا لأنه اختبار حقيقي فعلي لقلبه هل تعلق بمحبة الدنيا والمال أم لا؟ فهو يكره الفقر لا لكونه عيبًا بين الناس ولكن لما فيه من الحاجة، فهو يريد الكفاف لنفسه حتى لا يحتاج إلى أحد.. بل هو عند غناه يترك الملبس الحسن والمأكل الحسن أحيانًا لئلا تتعود نفسه عليهما، وليختبر حال قلبه هل تعلق بهما أم لا.. فمن فعل ذلك فهو الزاهد حقًا والله المستعان..

وقد سُئل الإمام أحمد: هل يكون الغني زاهدًا؟

فقال: إذا كان المال في يده وليس في قلبه كان زاهدًا.

٢- الصبر: وهو حبس النفس عن الجزع وحبس اللسان عن التشكي وحبس الأعضاء عما ينافي الصبر من لطم الخدود وشق الجيوب، وهو واجب بل الحد الأدنى منه ركن من أركان الإيثار بمعنى أنه من انعدم من قلبه الصبر، فاتهم الله بظلمه له بتقدير البلاء عليه، فقد كفر والعياذ بالله، وإن صلى وصام..

❖ والصبر المطلوب عند الصدمة الأولى؛ ففي الحديث: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»؛ وذلك لأن كل نفس تتسلى وتصبر مع مضي الزمن على المصيبة.

❖ وللصبر فضائل عظيمة، وقد ورد في فضله أحاديث وآيات كثيرة: فقد قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾، وفي الحديث: «الصبر ضياء» وفي آخر: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله

له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

✽ وعلى العبد أن يجاهد نفسه في البداية ليصل إلى مقام الصبر، ففي الحديث: «ومن يتصبر يصبره الله» أي: من تكلفه صار له عادة، وهكذا كل أعمال القلوب، فقد تكون حالاً ثابتاً، وقد تكون مقاماً يتغير، والعبرة بما عليه القلب في غالب الوقت.

✽ والصبر كغيره من عبادات القلوب يحتاج إلى عزيمة وإرادة، فقد قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

علامات الصبر:

١ - كتمان البلاء قدر المستطاع إلا ما لا يقدر عليه كالتأوه والتألم، فلا دليل على كراهته بل فعله الرسول ﷺ فقال لعائشة: «بل أنا يا عائشة وأرأساه» وإنما قاله تصبيراً لعائشة لما أخبرته بوجع رأسها.

٢ - عدم الشكوى إلى المخلوق، ولكن لو أخبر الطبيب بمرضه ناوياً بذلك الأخذ بأسباب العلاج لا شكوى الرب إلى المخلوق لم يكن ذلك قادحاً في الصبر.

٣ - استحقار البلاء والشعور بأنه قليل، فما يستحقه بسبب ذنوبه أكثر أو على الأقل هو قليل بالنسبة إلى غيره.

٤ - عدم التسخط أو الجزع أو الاضطراب عند نزول البلاء.

✽ ولا ينافي الصبر الشكوى إلى الله ودعاؤه برفع البلاء، فالصابر لا يجزع ولكنه يتمنى زوال البلاء بخلاف الراضي كما سنوضح بعد إن شاء الله، وقد قال يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (يُوسُفُ: ٨٦) وقد وعد عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾ أي: سأصبر صبراً جميلاً لا شكوى معه.

والصبر أنواع: صبرٌ على الطاعة فيداوم عليها العبد، وصبر عن المعاصي فيتركها العبد، وصبر على البلاء فلا يجزع ولا يتسخط.

ويعين العبد على الصبر عدة أمور:

✽ أن يعلم أن البلاء عند نزوله يقدر معه وقت زواله، فجزع العبد لا يسرع بذهابه وصبره لا يؤخر رحيله، فإن صبر العبد كان له الثواب عند الله، وإن جزع كان عليه الوزر العظيم.

✽ أن يعلم العبد أن كل بلاء مهما طال، فلا بد من زواله، ولو بزوال الحياة فلا يستبطئن زواله.

✽ أن يعلم الثواب العظيم الذي أعد الله له على صبره، فليصبر ابتغاء ثواب الله.

✽ أن يعلم كذلك الإثم العظيم الذي يكون بترك الصبر.

✽ أن يوطن العبد نفسه على أنه لابد من نزول البلاء.

وذلك التوطين على قسمين:

(أ) أن يكون للعبد مرض مزمن ينزل به تعود على نزوله، فيوطن نفسه أنه قد يأتيه ليكفر عنه من سيئاته، فإذا بالعبد يستعد له، فإذا نزل به لم يجزع ولم يسخط.

(ب) ألا يكون للعبد مرض مزمن، فيوطن نفسه على أنه صاحب ذنوب كثيرة تحتاج إلى تكفير، ويخبر نفسه بأن الدنيا دار بلاء ومحن، والأصل فيها الابتلاء فهذا التوطين من أكبر أسباب الصبر، خاصة وأن الصبر المطلوب هو ما كان عند الصدمة الأولى، وهذا يحتاج إلى استعداد سابق.

٦- أن يكثر العبد من مخالطة الفقراء والمرضى وتفقد حالهم ومعونتهم، ويستفيد

العبد من ذلك أنه إذا نزل البلاء به هان عليه الأمر لوجود من ابتلي مثله وأكثر منه، وهذا السبب ضروري خاصة للذي يجزع ويسخط عند نزول البلاء.

٧- أن يقارن العبد حاله بحال السلف حيث كانوا يجرون عمليات جراحية، وكانت تأتيهم آلام الأضراس، وغيرها وما كانت عندهم مثل المسكنات الموجودة الآن، وكانوا يصبرون، فنحن أولى بذلك خاصة مع ما مَنَّ الله به علينا من أدوية، فإذا تحقق العبد هذا استحيى من نفسه وصبر، وإذا صبر علم أن صبره ليس كصبرهم، فلا يعجب بصبره.

٨- أن يستحضر عند صبره أنه ينبغي أن يكون صابراً محتسباً ليكون إماماً وقدوة لمن يجزع، وهذا سبب عظيم النفع للداعية ولصاحب المهمة العالية، فلو استحضر هذا لربما هون عليها البلاء كثيراً، وما أجمل ما قاله الأعرابي لابن عباس يعزيه في أبيه لما مات:

اصبرنك بك صابرين فإنما صبر الرعية عند صبر الراس

خير من العباس صبرك بعده والله خير منك للعباس

بل رأيت بعض المبتلين من أصحاب المهمة العالية لما كثر عليه البلاء بأمراض عدة زاد صبره، وقال: بقي من أنواع الابتلاءات والأمراض مرضان لو نزلاني وصبرت لصرت إماماً لكل مبتلى في بلائه، وليس هذا تمنياً منه لنزول البلاء ولكنه تصوير للنفس عالية المهمة، والله المستعان.

(ج) الرضا: وهو أعلى من الصبر، وهو سنة مؤكدة، فالصابر لا يجزع ولا يتسخط، ولكنه قد يتمنى زوال البلاء، أما الرضا فهو عدم تمنى زوال البلاء، وأما الشكر فهو أن يشكر على البلاء كما يشكر على الرخاء، وكلا الرضا والشكر سنة مؤكدة وليسا بواجبين، وأما أثر «من لم يرض بقضائي فليخذ رباً سوائى» فهو ضعيف ولا يصح.

ما يعين العبد على الرضا:

١- أن يتفكر العبد في البلاء، فيراه في غير دينه فيرضى، وفي الحديث: «ولا تجعل مصيبتنا في ديننا» فالعبد إذا نزل به البلاء قال لنفسه: هل ترضين أن يعافيك الله من

البلاء وأنت على غير الإسلام أو حتى على غير الطاعة والإيمان؟؟ فإذا قالت: لا قال: لها فلم لا ترضين إذا؟ وما أجمل ما حكى عن بعض الفقراء الصالحين أنه كان قد حفظ كتاب الله ولكنه كان في فقر شديد، فنام يوماً وهو حزين لشدة فقره، فقبل له في منامه: أتود أن الله أنساك سورة هود ولك ألف دينار؟ فقال: لا قيل: فسورة يوسف؟ فقال: لا ولم يزل يعدد عليه سور القرآن وهو يقول: لا، فقبل: له معك ما يزيد على مائة ألف دينار فلم تحزن؟! (يعني أن سور القرآن ١١٤ سورة) فأصبح من نومه وقد زال عنه الحزن.

فنقول لمن رسب في الجامعة لعدم قدرته على حفظ المعلومات أو لمن لا يزال يتقلب في الأمراض أو لهذا الذي لا يزال في الفقر متقلباً، نقول لهم: البلاء الحقيقي الذي لا يرتضيه العبد أن يبتلى في دينه وأن يكون على غير الطريق المستقيم، فمن كان غير ملتزم بكتاب الله وسنة رسوله، فليحزن على هذه المصيبة أكثر من حزنه على مصائب الدنيا، فإن العبد الذي عنده صدام ينساه وينسى التألم به لو ابتلي بوجع الأضراس، فتفكير العبد في المصيبة الكبرى ينسيه الصغرى.. أما من كان على الكتاب والسنة، فنقول له: لا تحزن، وقل لنفسك: هل ترضين بزوال البلاء وأنت معافاة منه وأنت على غير الالتزام؟.

فإن قال قائل: فما المانع من المعافاة في الدين والمعافاة من البلاء معاً؟ قلت: هذا سؤال من لا يعرف طبيعة الحياة، فهي دار ابتلاء يقول تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] ولا يخلو أحد من بلاء، ولكن البعض ابتلاه الله في دينه والبعض ابتلاه الله في بدنه، أفليس ينبغي عليكم أن ترضوا بل تشكروا ربكم على أن جعل بلاءكم في البدن لا في الدين؟».

فإن قال العبد: لا أريد هذا البلاء بالذات وأنا راضٍ بأي بلاء آخر؟

قلنا: لا يخلو أمر هذا القائل من حالين:

(أ) أن تكون نفسه جازعة عند كل بلاء، وإنما قوله مجرد ظن ووهم، فنقول له لو نزل بك بلاء آخر لقلت مثل هذا، فصاحب وجع الأضراس يقول يا ليتته كان مغصًا، والمبتلى بالفقر يقول يا ليتته كان مرضًا، وهكذا كل واحد يخدع نفسه بأنه كان سيرضى عند أي بلاء آخر.. ويعرف العبد من نفسه هذا لو وجدها كلما نزل بها بلاء تمت أن لو كان قد نزل بلاء آخر، فحينئذ نقول له: وطن نفسك على البلاء، ولا تغتر بهذه الأمانى الكاذبة والدعاوى الباطلة.

(ب) أن يكون هذا البلاء حقًا مما يؤلم العبد أكثر من غيره، كهذا الذي يهتم بكلام الناس، فإذا به يبتلى بما يعده الناس عيبًا كرسوب في دراسة وغيره، وكهذا الذي فيه جبن وهلع فيبتلى بعملية جراحية لا بد من إجرائها له، وكهذا الذي يحب المال فيبتلى بالفقر، وقس على هذا، فنقول لهؤلاء: لو تأملتكم حكمة الرب وعظمته في هذا البلاء لشكرتم فضلًا عن أن ترضوا فقط.. إذ الرضا والصبر يظهر فيما لو ابتلى العبد بما يهتم به ويؤثر فيه، فهذا الذي يهتم بكلام الناس ربما وجد في نفسه صبرًا على الأمراض، وعدم صبر على الابتلاءات الأخرى، فقد جعل الله في كل عبد نقاط ضعف يأتيه من جهتها البلاء ليكون اختبارًا لصبره وإيمانه فإذا تفكر العبد في هذا شكر الله؛ إذ وضع له امتحانًا حقيقيًا في الدنيا دار الابتلاء ليعلم هل هو صادق في ادعائه الرضا والصبر والتوكل وغيرها من مقامات الإيمان أم هو كاذب؟ وهذا والله أمر هام جدًّا، فكم من عبد ادعى الصبر والرضا فلما ابتلى ظهرت حقيقة دعواه، والأعمال القلبية لا تظهر إلا عند البلاء وفي الحديث: «كانوا يفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء» ولعل هذا الفرح لهذا المعنى الذي ذكرته، بل وأجمل من ذلك أن العبد لو استحضر هذه المسألة ل زاد فرحه مع زيادة البلاء؛ إذ كلما زاد البلاء كلما ازداد إيمانه ونال أعلى درجات الإيمان حيث يصعب على العبد في الغالب أن يصل إلى درجة الرضا والشكر عند أول بلاء، فكأنه بالكاد يصبر عند

أول بلاء ثم يصبر حقيقة في الثاني ثم يقترب من الرضا في البلاء الثالث ثم يرضى ثم يشكر، وهكذا كلما زاد البلاء كلما ارتفعت درجة إيمان العبد.

ومثل هذا العبد لو طال عليه البلاء لما تمنى زواله ولا يعبأ باستمراره ليصل إلى درجة الشكر واليقين، فربما وجد العبد في نفسه الصبر عند أول البلاء فلا يزال يزيد البلاء وتطول مدته، والمؤمن يفرح بذلك لوجود فرصة أمامه لنيل مقام الرضا بل لو زال البلاء الأول والعبد راض، فلن يجزع العاقل للبلاء الثاني بل سيفرح؛ إذ النجاح أن يكون العبد دائماً في مقام الرضا لا أن يرضى أحياناً ويجزع أحياناً ولا يتبين هذا إلا بكثرة البلاء وتعدده، فمن تدبر هذا حق التدبر اطمأن قلبه وصار الرضا له مقاماً وليس فقط مجرد حال، وحينئذ يكون لسان حاله «أصبحت ألتمس رضائي في مواقع القدر»، بل يصير بعدها في مقام التوكل والتفويض إلى الله لعلمه أن ربه لا يفعل به إلا الأصلاح لدينه ولا يختار له إلا الأقوم، فإذا به لا يخاف من البلاء ولا تقلق نفسه ولا تضطرب، فهو مفوض أمره إلى الله يختار الله له؛ إذ هو سبحانه يختار له لا عليه، فالله المستعان على فهم تلك المعاني الإيمانية العظيمة...

فإن قال المبتلى: إنما أحزن على ما فاتني من طاعات كنت أقوم بها؟ قلت: ما كنت تقوم به إنما هي طاعات بدنية وما أنت بصدده الآن إنما هي طاعات قلبية والفارق بينهما في الثواب كما بين السماء والأرض، ثم إن هذه العبادات القلبية لا تظهر إلا بالبلاء والتمحيص، والعباد تتفاضل إيمانياً بما في قلوبها من خير لا بأعمال البدن، ثم هذا المبتلى لم يفقه شيء؛ إذ العبد بالنية الصالحة يكتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً، ويكتب له ما كان يعمل به وهو غني لو افتقر طالما اتتوى النية الصالحة.

فإن قيل: فما بال يعقوب قال الله عنه: ﴿وَقَالَ يَكْأَسْفَى عَلَى يَوْسُفَ وَأَبْصَحْتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ وقال النبي ﷺ لما مات ابنه إبراهيم: «إن القلب ليحزن وإن

العين لتدمع ولا نقول إلا ما يرضي الرب»، فكيف حزنوا مع كونهم من أهل الرضا؟ قلت: هذا إشكال أجاب عنه العلماء بأجوبة منها:

(أ) كان حزنهم لفوات الطاعة، فيعقوب تمنى أن لو كان يوسف نبياً ليقود الأمة من بعده وليكون عمله في ميزان حسناته؛ فحزن لأن في فقدته فواتاً لهذا، وكذلك رسول الله ﷺ حزن لموت إبراهيم؛ إذ كان يؤمل في نبوته من بعده ليقود الأمة، وقد قال عنه: «لو عاش ابني هذا لكان نبياً» وقد نص العلماء على أنه: «من حزن لفوات الطاعة لم يكن فعله منافياً للرضا».

(ب) الأنبياء والرسل قلوبهم كبيرة تتسع لوجود الحزن الفطري والرضا بقضاء الله معاً بخلاف غيرهم، فقد تضيق قلوبهم عن الجمع بينهما، فيقدمون حق الله من الرضا على حق المخلوق من الحزن.

(ج) وهو أحسنها أن يقال عند نزول المصيبة؛ كفقد حبيب أو موت صاحب ينازع النفس حقان: حق الله من الرضا بقضائه، وحق المخلوق المبطل من الحزن لأجله، فحق المخلوق من مقتضى الجبلة، ومن فعل خلاف ذلك كان من المقصرين في حق المخلوق، فتخيل رجلاً يزعم محبة صديق له ثم إذا به يضحك ويفرح عند موت صديقه، فهل يصدق عليه أنه صديقه حقاً؟! فهذا الحزن هو حق المخلوق بل قد يزيد الأمر عند أصحاب القلوب الرحيمة فتبكي أعينهم، وقد قال الرسول ﷺ لما مات ابنه إبراهيم: «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضي الرب».

والثاني - حق الرب من الرضا بقضائه وتقديره وعدم تمنى زواله أو تمنى غيره؛ إذ ما قدره الرب هو الخير وهو الأفضل، فإن قيل: وكيف لا تتمنى النفس زوال ما تتألم به وتكرهه؟ قلت: كالمريض يأخذ الدواء الكريه الطعم وهو راض أو كرضي الصائم في

الحر الشديد بما يجده من آلام أو كمن وضع له السم في العسل فهو يجد طعم السم ويجد حلاوة العسل معًا بلا تعارض بينهما بل قد تغطي حلاوة العسل فتتسيه مرارة السم.

تنبيه:

قال بعض السلف: «ليس بعارف من تمنى فوق منزلته».

وقال آخر: «ليس من الرضا تمنى غير المنزلة»، وهذا الكلام بديع، ومعناه أن المواهب والآفات موزعة في الغالب على الناس، فكل واحد أعطاه الله من المواهب والآفات ما يليق به وما لو استغله لوصل إلى أحسن حال بإذن الله، وهذه المواهب والآفات بعضها كسبي من البيئة والوسط المحيط وهذا لا دخل للعبد فيه، وبعضها جبليّ جُبِلَ وفُطِرَ عليه، فسبحان من خلق فسوى ومن قدر فهدى.. فهذا منذ صغره يتربى في أسرة تعلمه ضرورة التفوق على الناس كلها، وضرورة كونه أفضل الناس في أمور الدنيا، فإذا به يتلى بفقده لكثير من أمور الدنيا التي تربى على أن فقدتها فقد كبير... وهذا يتربى في بيئة تعودده على الخوف من كل شيء حتى من أحقر الحشرات، فإذا به يجد مشقة إذا التزم خشية أن يسجن مثلاً... وهذا ثالث يتربى على الجبن وعدم القدرة على مواجهة مشاكله بنفسه، فإذا به يكاد قلبه أن يطير لو تعرض لعملية جراحية مثلاً أو لو واجه مشكلة ما... وهذا رابع يتربى على العاطفة ومحبة الجمال، فإذا به يجد صعوبة في غض بصره بل ربما ابتلي بالعشق سواء للرجال أو للنساء...

وقس على هذا فما أنا بمستطيع لحصر الطباع ولا عشر معشارها، ولكن حسبي هاهنا أن أنبه على أن كل طبع سواء كان طيباً أم غير طيب بإمكان من ركب فيه هذا الطبع استغلاله أحسن استغلال لترتفع منزلته عند الله، بل ربما ركب فيه هذا الطبع ليتخلص منه، فيكون قدوةً لغيره وحكم الله عظيمة...

فهذا الذي ابتلي بالتربية على حب الدنيا لا يحزن... فكم سيكون ثوابه عند الله لو ترك الدنيا مع كونه قد تربى على حبها بخلاف من يأنف منها ويزهد فيها جبلة، كما أن هذا المحب للدنيا يستطيع استغلال حبه للدنيا لتكثر حسناته؛ إذ سينال منها بمقتضى طبعه ما يحبه من مأكّل ومشرب، فيشكر الله على ما ينال شكرًا من القلب بخلاف من يأنف من الدنيا، فإنه لو نال منها شيئًا فلن يكون شكره كشكره، فمثل الأول كمن شرب الماء البارد وهو عطشان فكيف يكون شكره بعد شربه؟ ومثل الثاني كمن شرب الماء وهو غير مشتاق إليه فكيف يكون شكره؟؟ ثم هذا الذي ابتلي بحب الدنيا يتصور منه الإيثار لوجود المحبة في قلبه لما يؤثر به بخلاف من لا يحبها أصلًا... وهذا الذي ابتلي بالتربية على الخوف من كل شيء فلا يحزن... فكم سيكون ثوابه عند الله لو تغلب على هذا وأطاع الله ولم يبال بأحد... بل خوفه هذا سيجعل في قلبه رقةً يسهل معها الخوف من الله بخلاف من تربى على الشجاعة والجفاء، فقد يصعب عليه إيجاد مثل هذه العبادات في قلبه لكنه سيتميز بسهولة اتباعه للحق غير مبال بأحد، فلكل طبع منهما ميزته وعييه...

وهذا الذي تربى على الجبن فلا يحزن أيضًا... إذ ثوابه عند نزول المصائب أكبر لكون أثرها عليه أشد... بل ربما استغل هذا الجبن عند نصح الناس، فإذا به يتلطف أشد التلطف في نصحهم حتى يقنعهم بنصيحته خوفًا من أن يتعرض له أحدٌ بكلام سيئ بخلاف شجاع القلب، فربما لشدة في الحق صار ينصح الناس بقسوة... وكم رأيت والله من كلا الصنفين وحدث مثل ما أقول، فأما الشجاع فإذا به يغلظ في النصح حتى نفر الناس منه، وهذا الجبان تلطف في نصحه غاية التلطف حتى قال له الناس: يا ليت جميع الناصحين مثلك في الأدب والأخلاق!!

وهذا الذي تربى على العاطفة فلا يحزن... فإنه ستسهل عليه العبادات القلبية من حب ورجاء ورضا بسبب رقة قلبه... بل هو أعظم الناس سعادة بالتفكر وأكثرهم تأثرًا

به بخلاف جامد القلب وقاسي العاطفة... بل ربما ابتلي بالعشق ليتخلص منه ثم يصف للناس كيف تخلص منه؟ وربما استغل عاطفته في ربط المدعويين به وجذبهم إلى الدين.. ف سبحانه الله العظيم... وهذا الذي أحكيه حدث ورأيت كله، فما كتبت هذا الكلام إلا بعد تجارب عملية رأيتها ولمستها...

وكذلك هذا الذي تربى على الأخلاق الفاضلة ربما عانى بسبب ذلك؛ إذ هو لحياته - وليس هذا بحياء شرعي - سيصعب عليه أن ينكر المنكر أو ينصح العصاة، وربما منعه بره بوالديه أن يعصيهما في إطلاق اللحية مثلاً مع أنه لا طاعة لهما في معصية الله.. فانظر إلى الطبع الحسن كيف أنه قد يترتب عليه - بسبب الجهل وقلة العلم - آفات، فليرض كل واحد بما ركب الله فيه من طباع أو لا ثم ليرض ببلاء الله ثانياً وليستغل هذه الطباع في الخير ثالثاً، والله المستعان.

فليس الرضا أن يرضى العبد بما قسمه الله من أرزاق دنيوية فقط بل هو كذلك رضا بما وهبه الله للعبد من مواهب بل أعلى من ذلك الرضا بالله بدلاً عن كل ما سواه وبرسوله قدوة، فلسان حال هذا الراضي يقول: رضيت بالله رباً وبمحمد ﷺ رسولاً وبالإسلام ديناً والله المستعان.

وأختم باب الرضا بمسألة هامة، وهي أن الدعاء بطلب الدنيا لا ينافي الرضا بشرط طلبها من أجل الآخرة، كهذا الذي يدعو بالنجاح في امتحانه ليرضي الوالدين أو يدعو برزق المال ليحج، ولكن الأولى ألا يقول: «رب نجحني» مثلاً ولكن ليقول: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة» وينوي بها ما يريد، ففي الحديث: «كان أكثر دعاء النبي ﷺ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» (رواه مسلم)، فكان أنس رضي الله عنه راوي هذا الحديث يكثر من الدعاء بها فإن دعا بها وإلا جعلها في دعوته، وكذلك لو دعا العبد لنفسه برفع البلاء لم يناف الرضا بشرط أن يكون البلاء قد منعه من الطاعة، فينوي

رفع البلاء لذلك، ففي الحديث: دخل رسول الله ﷺ على مريض فقال: «اللهم اشف عبدك ينكأ لك عدوًا ويمشي إلى صلاة»، فانظر كيف جعل الدعاء برفع البلاء من أجل القيام بالعبادة من جهاد وصلاة... وإذا جاز الدعاء برفع البلاء عن غيره جاز عن نفسه، والله الموفق.

(د) الشكر: وهو أعلى من الرضا، ويكفي في أهميته وفضله قوله عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فكأن غاية التقوى التي هي الغاية المنشودة غايتها شكر الله عز وجل، فأعظم بتلك العبادة وأنعم!!

والشكر له متعلقان:

(أ) الشكر على النعماء. (ب) الشكر على البلاء.

(أ) الشكر على النعماء:

وحقيقته أن يعترف العبد بالعجز عن شكر الله كما ينبغي، وفي الأثر: «قال موسى: يا رب إن شكرتك فممنك، وإن أطعته فممنك فكيف أشكر؟ فقال: يا موسى الآن شكرتني» أي: حققت الشكر لما اعترفت بالعجز عن الشكر، وإنما يتحقق يقين العبد بالعجز عن الشكر إذا علم أن الشكر على النعمة - نعمة تحتاج إلى شكر؛ إذ لولا أن الله وفقه لشكره لما شكره، فإذا بالأمر يؤول إلى لزوم الشكر على القيام بالشكر وشكر الشكر يحتاج إلى شكر آخر، وهكذا أبدًا؛ فلا يستطيع العبد مهما أوتي أن يوفي الله حق شكره.

والشكر عمل قلبي في الأصل يعبر عنه العبد بلسانه، فمن قال: الحمد لله وهو غير معترف بفضل الله أو وهو يعصي الله فما شكره، ومن استحضر بقلبه فضل الله ونعمته واستغل النعم في الطاعة، فقد شكره وإن لم يقل الحمد لله.

وكثير من الناس يشكر على نعم الدنيا من رزق وصحة ومأكل ومشرب، ولكن قليل منهم من يشكر على النعمة الحقيقية، وهي نعمة الإيمان والطاعة، وقد قال تعالى:

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾، فطريق العبد في شكره على النعماء إذا ألا يتحرك حركةً لله عليه فيها نعمة إلا ويحمد الله عليها، فإذا صلى الفرض في المسجد مثلاً حمد الله على صلاة الجماعة ثم يحمده على نعمة إدراك تكبيرة الإحرام فقد حرمها الكثير ثم يحمده على نعمة صلاة السنة القبلية، وكذلك لو استيقظ لصلاة الفجر أو لقيام الليل أو لصيام يوم، وهكذا في كل طاعة يؤديها يشكر الله عليها، وإذا فعل ذلك زاده الله توفيقاً؛ وقد قال العجالي: ﴿لَيْنْ شَكْرْتُمْ لَا زِيدَتْكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧).

بل إنه إذا رأى أهل المعاصي قال: «الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به وفضلني على كثير من خلقه تفضيلاً» كما يقول عند رؤية أهل البلاء في أمور الدنيا سواء، فبلاء الدين أشد ونعمة السلامة في الدين أكبر.

فإذا داوم العبد على هذا أيقن بحاجته في كل طاعة صغرت أو كبرت إلى معونة الله وتوفيقه، فيتحقق مقام قول النبي ﷺ: «ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً» (حسنه الألباني)، بل ويتعود كذلك على مراقبة خواطر نفسه ودواعيها، فما كان بالخير شكر عليه وما كان بالمعصية طرده واستغفر منه.

فوائد الشكر:

هو عبادة قلبية ثوابها عظيم وفضلها عظيم، فهي سبب زيادة الخير الواصل للعبد من الله قال العجالي: ﴿لَيْنْ شَكْرْتُمْ لَا زِيدَتْكُمْ﴾، وفي الحديث: «أفضل العباد عند الله يوم القيامة الحمّادون»، ولذا أطلق الله جزاء الشاكرين ليدل على كثرتهم وجلالته، فقال: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (العنكبوت: ١٤٥)، وقال: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (العنكبوت: ١٤٤)، ولم يحده.

كما أنَّ المداومة على الشكر سبب لركة القلب وصلاحه ويكفي في ذلك أن أقسى الناس قلوباً - بني إسرائيل - أمرهم الله بالشكر فقال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الْإِسْرَاءُ: ٣) أي: فكونوا مثله.

كذلك الشكر سبب لرضا الله عن العبد وأعظم بها من نعمة، ففي الحديث: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»، فكيف بشكر الله على نعم الدين، ومن أكثر من الشكر ملأ ميزانه من الحسنات؛ ففي الحديث: «والحمد لله تملأ الميزان» (صحيح الجامع الصغير).

(ب) الشكر على البلاء؛

وهو أن يحمد الله على البلاء كما يحمد على النعمة، وهذا صعب إلا على من يسره الله عليه، وطريق العبد لوصوله إلى هذه المنزلة العالية أن يستحضر ما ذكرناه في أمر الرضا، ويزيد عليه أن يكون دائم التذكر لذنوبه والتفكر فيها حتى يستشعر بكثرتها وبشدة حاجته إلى محصات ومكفرات، فإذا به عند نزول البلاء يفرح ويحمد الله؛ إذ ذنوبه كثيرة لا تطهرها إلا البلاءات... ولا تستغرب هذا فإن العبد لو أبغض نفسه في الله لكثرة عصيانه وعلم أنها تحتاج إلى تطهير شامل من الذنوب لعرف صحة ما أقول، ولصار شكره على البلاء كالرخاء وأشد، والله المستعان.

فائدة؛

تناول الدواء لا ينافي الصبر ولا الرضا ولا الشكر؛ إذ العبد مأمور شرعاً بالأخذ بالأسباب، ومفطور طبعاً على مقاومة الأسباب الضارة كما أنَّ ذلك لا ينافي التوكل بشروط:

✽ أن يكون أخذه للدواء طلباً لزوال ما يمنعه من الطاعة والعبادة لا لمجرد التنعم بالصحة.

✽ أن يكون توكله في الشفاء على الله لا على الدواء، ودليل هذا أنه لو نسي أخذ الدواء أو عجز عن شرائه لم يجزع بل يتوكل على الله في الشفاء بدون الدواء، فإن جزع فليس بمتوكل.

✽ إذا كان المرض لم يمنعه مستحباً ولا واجباً، فالأولى - والله أعلم - ترك التداوي، فإن تناوله العبد في تلك الحال متبنيًا المذهب القائل باستحباب أخذ الدواء مطلقاً، فليؤثر حينئذ اتباع أمر النبي ﷺ في قوله: «فتداووا عباد الله».

(هـ) اليقين: وهو صفة المؤمنين الكمل يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة: ٤) وفي الحديث الصحيح: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين» (حسن السلسلة الصحيحة).

والناس فيه على درجتين:

(أ) يقين العمل: وهو أن يكون عمل العبد عمل المتيقن؛ ولكن قلبه لم يطمأن بعد، بل فيه منازعات كهذا الذي يجاهد ولكنه يجبن ويجد في نفسه دواعي الهلع والخور؛ إذ لم توقن نفسه بعد بحديث: «لا يجد الشهيد من ألم الموت إلا كما يجد أحدكم من ألم القرصة» (صحيح الجامع الصغير) ومن هذه حاله لا يأثم إذا فعل الواجب طالما لم يشك في صدق الخبر، وإنما قل يقينه وعزمه.

(ب) يقين القلب: وهو أن يكون العبد على يقين بقلبه من صدق الخبر، فلا يجد ترددًا في قلبه... وهو كذلك ثابت القلب لا تضره فتنة ولا شبهة، فهو يعمل بطاعة الله ويترك معصية الله على نور من الله... بل هو يعمل بالطاعة كأنها رأى الجنة، ويترك المعصية كأنها رأى النار... والله المستعان.

(و) الصدق: وهو على درجتين:

١ - صدق في القول: وهو ألا يتكلم العبد إلا بما تيقن صدقه أو على الأقل بما يغلب على ظنه ذلك، أما ما شك فيه فلا يتكلم به، وهذا الصدق سبب لدخول الجنة، ففي الحديث: «وإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة» (صحيح الجامع الصغير).

٢ - صدق العمل: وهو الأساس؛ فصدق القول شعبة من صدق العمل، ولهذا الصدق في العمل علامات:

❖ ألا يفرح المرء بمدح الناس ولا يحزن من ذمهم، فإن فعل فليس بصادق.

❖ ألا يركن في طاعته إلى ما تحبه نفسه بل إلى ما يحبه الله، فهو يعمل المحبوب لله شرعاً وإن كان غيره أحب إلى نفسه، كهذا الذي يجد راحة نفسه في العزلة ولكنه يخالط الناس ليعلم جاهلهم وينصح مخطأهم، فهذا هو الصادق حقاً.

❖ أن يعمل بطاعة الله لا لإسعاد نفسه بلذة العبادة فقط، فيركن إلى اللذة ولكنه يطيع ابتغاء مرضات الله وامثالاً لأمره، فهو يترك العلم أو العبادة مع تعلق قلبه بهما لقضاء حاجة المسلم أو لحضور عرسه وذلك لأن هذا أحب إلى الله، وهو كذلك يقوم على خدمة أخيه المريض ولو ترك قيام الليل الذي قد تعود عليه وشعر فيه باللذة؛ لأن هذا أحب إلى الله، وهو كذلك يمشي إلى المسجد بطيئاً كما أمره الرسول ﷺ حتى لو فاتته تكبيرة الإحرام مع أن قلبه يكاد يتقطع على فواتها، وما أصعب هذا على النفوس الطائعات ولكنها حقيقة الصدق، إذ هو عبودية القلب لله بغض النظر عن حظ النفس والله المستعان.

❖ أن يجتهد العبد في جعل باطنه خيراً من ظاهره، فهذه علامة الصدق.

❖ ألا يجد فتوراً عن الطاعة، فالصادق لا يكاد يفتر عن الطاعة.

❖ أن يقبل النصح من غيره، ولا يجد غضاضة في قبول نصح الناس له بل يفرح ويشكر لهم، ولسان حاله يقول لهم: «رحم الله امرءاً أهدى إليّ عيوبي».

❖ ألا يجد في نفسه حرجاً ولا ضيقاً لالتزامه بأمر الله وشرعه وإن لأمه الناس جميعاً، فهذا هو الصديق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعزم على حرب المرتدين ولا يستجيب للوم الصحابة له حتى استجابوا جميعاً له.

❖ أن يداوم العبد على الطاعة وإن انقطعت اللذة عنه فيها، فليست اللذة مطلبه الأول وإنما مرضاة الله.

(ي) التوكل: وهو اعتماد القلب حقاً على الله وليس بمجرد الكلام، وإنما ينشئ التوكل كثرة للرضا بالله رباً، فيتوكل العبد عليه، كما أن الرضا بقضاء الله ثمرة من ثمرات التوكل على الله.

وحقيقته أن يعلم العبد أنه لا حركة له في طاعة ولا إحجام له عن معصية إلا بالله، وهو معنى «لا حول ولا قوة إلا بالله»، ولعل استحضر هذا المعنى من أهم فوائد كثرة وقوع العبد في المعاصي، فكم من عبد عزم على ترك المعاصي حتى إذا تركها فترة ما، ووثق في نفسه واتكل عليها، فإذا بالله الرحيم يبتليه بها مرة ثانية ليكمل توكله على الله، وليثق في الله لا في نفسه.

بل من أجل هذا المعنى يتأخر مجيء النصر لعباد الله الدعاة والمؤمنين لينقطع رجاؤهم في الأسباب فيكمل توكلهم على ربهم، فيأتي النصر كما قَالَ تَعَالَى في سورة يوسف: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾، فإذا استحضر العبد هذا لم ييأس من الله ويأس من نفسه، فهي لا صلاح فيها ولا خير فيها إلا من الله وإلا بالله، فإذا كمل يأس العبد من نفسه وكملت ثقته في ربه كان متوكلاً حقاً.

العيوب التي بالنفوس البشرية على قسمين:

١ - عيوب عامة: سهل الله للعبد التخلص منها بالأخذ بالأسباب.

٢ - عيوب خاصة: جعل الله في كل عبد عيباً أو ربما أكثر كلما حاول التخلص منه لم يستطع، فهذا عيبه الأنانية والثاني عيبه سوء الظن والثالث عيبه الرياء والرابع عيبه العجب والخامس عيبه الكبر وهكذا... فتجد هذا الذي صعب عليه التخلص من الكبر مثلاً قد سهل الله عليه ترك الرياء وترك سوء الظن والعكس قد يكون، فإن قيل: فما بال العبد لا يتخلص من هذه العيوب؟ قلت لأنه ما كمل توكله على ربه، فهذه العيوب جعلها الله في العبد ومنعه المعونة على التخلص منها ابتلاءً واختباراً، فمن اعترف بعجزه التام عن تركها وبحاجته الملحة إلى ربه واستشعر الفقر الحقيقي إلى الله، أعانه الله ووفقه للتخلص منها، ومن ركن إلى نفسه ووثق فيها وظن في نفسه القدرة على تركها، وكله الله إلى نفسه فضاع وخاب.

ما يعين العبد على التوكل:

علمه بأن الله يحب له الخير، بل يحب ذاته إذا كان مؤمناً أكثر من حب العبد لنفسه، وفي الحديث: «والله لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها»، فإذا علم العبد هذا وعلم كمال علم الله؛ فوض أمره إلى الله ليختار له الأفضل وفي الحديث: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»، فمن استحضر هذا ركن إلى الله واعتمد بكليته عليه وفوض الأمر إليه، فإن اختار له الحياة فهي أفضل، وإن اختار الموت فهو أفضل، فكم من عبد عاش فما زاده عمره إلا خيراً، وكم من عبد عاش فما زاده عمره إلا شراً...

❖ وهو كذلك لا يريد الصحة ولا المرض بل يريد ما أَراده الله، فإن اختار له المرض فهو أفضل، وإن اختار له الصحة فهي أفضل، وهو كذلك لا يختار لنفسه فقراً ولا غنى بل لسان حاله يقول: «الفقر والغنى مطيتان لا أبالي أيهما ركبت، فإن كان الفقر ففيه الصبر، وإن كان الغنى ففيه الشكر».

❖ أن ييأس العبد من حول نفسه وقوته، وطريق ذلك أن يتفكر في كل عمل اعتمد فيه على نفسه واطمأن إليها، فيجد نفسه قد خاب فيه وما أكمله، فإذا به يعرف حقيقة الأمر وهي أن الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى، فيتوكل عليه.

❖ أن يشق العبد في حسن اختيار الله له وطريق ذلك أن يتفكر العبد في كل ما مر به من أحداث، فيجد أن الله الحكيم الرحيم ما نقله من مكان إلى مكان ولا من عمل إلى عمل وإلا وله عليه من نعم... فهذا يمنع من إعطاء الدروس، فإذا به يتفرغ لتأليف الكتب وتصنيفها، فبدلاً من سماع درسه العشرات إذا بكتبه تقرأها المئات والآلاف... وهذا ينتقل من بلده التي تربى فيها وهو حزين، فإذا به يجد في البلدة التي انتقل إليها يجد فيها إخوة ودروساً وعلماً لم يكن ليحصل على عشره في بلده التي كان فيها... وهذا ينام عن امتحانه فلا يحضره فيدخل كلية لا يرضاها لنفسه، فإذا به في كليته يلتقي بإخوة أفاضل يتعلم على أيديهم الدين والعلم الشرعي الذي ما كان ليحصله على يد غير هؤلاء الإخوة... وهذا يرسب في كليته فإذا به يجد أنه لو نجح لدخل الجيش ولخلق لحيته، بينما لما رسب أعطيت دفعته تأجيلاً... وقس على هذا مما لا تحصيه العبارة.

❖ أن يعلم العبد أن الكون كله والمخلوقات كلها ملك لله يتصرف فيها كيف يشاء، ولا يملك أحد لأحد نفعاً ولا ضرراً، فإذا أيقن العبد بهذا توكل على الرب لا على المخلوق، ويصير لا يعبأ ولو اجتمع من في الدنيا كلها عليه تريد كيده.

✽ أن يكون العبد مؤدياً حق ربه على وجه العدل والتوازن بين العلم والعمل، وهذا العدل معناه أن يعمل بالحد الأدنى مما علم وما فضل عن وقته قضاءه في ما قد برز فيه سواء أكان العلم أم العمل، وهذا هو حل الإشكال الكبير الذي طالما تساءل الناس عنه هل يقدم العلم أم العمل؟ فنقول: يتعلم العبد العلم الواجب عليه من توحيد وفقه ويعمل بالواجب، وما فضل عن وقته قضاءه في العمل بالحد الأدنى مما يعلم استحبابه، ثم ما فضل من الوقت قضاءه فيما برز فيه ويشعر بأنه سيتفوق فيه سواء أكان العلم أم العمل، فإذا كان العبد بارزاً في باب العلم، فإنه سيكون أثناء عبادته كامل اللجوء إلى الله أن يبارك له في وقته ويقلل له من نومه ليقضي نهمته من العلم الذي يريد، وكذلك لو كان بارزاً في العمل كان أثناء تعلمه صادق اللجوء إلى الله ليعلمه ما يعمل به... وإلا فقد خدع بعض طلبة العلم فظنوا أن العمل بالعلم يعوقهم عن طلب العلم، وجعلوا أن النفس كالألة لا بد لها من وقود، ووقودها هو العمل بالعلم بل نسوا كم ضاع عليهم بسبب ترك العمل من وقت قضوه في نوم أو أكل بخلاف العامل الزاهد الذي يعرف قيمة كل لحظة تمر به والله المستعان... فالغرض المقصود بيان أن كمال التوكل لمن اعتدل في الجمع بين العلم والعمل لا لمن طغى أحد الجانبين عنده على الآخر، فصار يتعبد وهو يجهل التوحيد والإيمان بالقدر، أو صار يتعلم وهو لا يكاد يقرأ القرآن أو يخشع في صلاته!!!

ويرتبط بباب التوكل على الله مسألة هامة وهي: أن التوكل ليس بترك الأسباب بل بترك الاعتماد على الأسباب، فالتوكل يأخذ بها ولكنه لا يعتمد عليها، فهذا هو النبي ﷺ يهاجر إلى المدينة متخفياً ومعه الزاد والراحلة أخذاً بالأسباب... فإن قيل: قد صح عن خالد بن الوليد أنه أكل السم توكلًا على الله فلم يضره، وصح عن بعض الزهاد أنه دخل الصحراء بلا زاد فرزقه الله بالطعام؟ قلت: هؤلاء أفاضل قام

بقلبهم من الثقة بالله والتوكل عليه ما كان سبباً في إعطائهم ما أملوه من الله، ولكن الحال الأكمل حال كبار الصحابة وكبار الزهاد من الأخذ بالأسباب وعدم الاعتماد عليها، فمن السهل على العبد ترك الأسباب بالكلية، ولكنه يصعب عليه الأخذ بالأسباب مع عدم الاعتماد عليها، كما يسهل عليه ترك أكل الطيبات بالكلية بينما يصعب عليه أكل الطيب ومعرفة طيب طعمه ثم لا يشبع منه، فإذا أخذ العبد بالأسباب واعتمد على رب الأسباب، فصار لا يقدم على صغير ولا كبير من أمره إلا واستخار ربه وفوض الأمر إليه ووثق في حسن اختياره إن فعل ذلك، فحينئذ يكفيه الله ويقيه؛ ففي الحديث: «إذا خرج العبد من بيته فقال: بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله قيل له: كفيت وهديت ووقيت»، بل تأتية الأرزاق من حيث لا يحتسب؛ ففي الحديث: «لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»، بل يكفيه الله الناس جميعاً ولو اجتمعوا عليه، بل قد يكرمه بالمعجزات والكرامات؛ ففي الحديث: «حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها رسول الله حين قالوا له إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم»، بل يكون الله بذاته العلية المقدسة هو حسبه وناصره؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ، وليعلم العبد أنه لن يكون مؤمناً إلا بالتوكل على الله؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

والناس في التوكل على درجات: فمنهم من يتوكل على الله في الحصول على الرزق وهذا توكل الكثير بل من الكفار من يتوكل على الله في هذا، ومن الناس من يتوكل عليه في تعليمه ما لم يكن يعلم من العلوم الشرعية، ولا يكون هذا التوكل إلا من علم أن العلم ليس عن كثرة المسائل إنما هو الفهم من الله وعن الله، وليس بكثرة القراءة إنما هو بإخلاص القلب لله، ومنهم من يتوكل على الله في دعوته للناس وفي هدايتهم وهذا توكل الرسل، ولا يكون هذا التوكل إلا من يأس أن يهدي الناس بفعله ومهارته، وعلم

أن الهداية من الله يرزقها من يشاء، فحينئذ يتوكل على الله، وهذا هو تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي: يأسوا من أنفسهم ووثقوا في الله، ومنهم من يتوكل عليه في الثبات على الدين إلى الممات، ولا يكون هذا التوكل إلا من تحقق بقول النبي ﷺ: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء».

(ن) الخشوع: وهو عمل قلبي يظهر أثره على البدن، وهو سبب فلاح العبد؛ فقد قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾، وبسببه عاتب الله صحابة رسوله الكرام، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

ولخشوع القلب أسباب:

✽ الإكثار من الصيام وتقليل الطعام، فالنفس تقسو بكثرة الطعام وتلين وتخشع بقلته.

✽ الإكثار من ذكر الله، فالقلب الغافل قريب من وساوس الشيطان وبعيد عن الإخبات إلى الرحمن بخلاف القلب الذاكر.

✽ الاجتهاد في تدبر القرآن؛ فهو من أكبر أسباب خشوع القلب.

✽ تعلم العلم الشرعي ومدارسته، فهو أقرب الطرق الموصلة للخشوع، وقد أخبر بعض العباد أنه اجتهد في العبادة سنين ثم طلب العلم، فكان الخشوع الذي ناله في شهور بعد طلب العلم أكبر بكثير مما ناله في سنين العبادة، وهذا أمر مشاهد.

✽ البعد عن المعاصي؛ إذ هي سبب سواد القلب وغفلته.

✽ ترك فضول النظر وفضول الكلام وترك النوم الكثير.

✽ الإكثار من النوافل وإطالة الصلاة حتى يلين القلب ويخشع، وإلا فكثير من الناس يطلب الخشوع في الصلاة وينسى أن الأصل خشوع القلب على وجه العموم، والخشوع في الصلاة إنما هو أثر من آثار خشوع القلب، ولا يصل عبد إلى الخشوع في صلاته حتى يخشع قلبه.

✽ دوام تفكر العبد فيها يمر به ويشاهده من أحداث؛ فإن ذلك يورثه سكينه القلب والنفس، وطريق ذلك أن يجعل العبد من كل أحداث حياته تذكرة بالآخرة، فإذا شم ريحاً خبيثة تذكر طعام أهل النار واستعاذ بالله من عذابها؛ إذ طعامهم الغسلين المتتن الذي هو أشد خبثاً من البول والغائط، وإذا شعر بشدة الحر الذي لا يطاق تذكر نار جهنم، فإذا شعر بالزمهرير الذي تهتز معه أعضاؤه برداً تذكر زمهرير جهنم، واستعاذ بالله منها، وإذا رأى تنور الخبز «الفرن» تذكر النار، وإذا شم ريحاً طيبة أو رأى خضرة تذكر الجنة، وإذا توضأ أو اغتسل تذكر كيف أنه يغسل بدنه ولم يغسل بعد قلبه من الذنوب، وإذا تطيب تذكر أنه لم يطيب قلبه من المعاصي والأمراض بعد، وإذا لبس ملبساً حسناً تذكر أن مظهره حسن أما باطنه ففيه سواد وكدر.

وتذكر قول بعض السلف: «كم من مبيّض لثيابه مدّس لدينه»، فالمداممة على هذا تؤثر تأثيراً عجيباً في القلب، والله المستعان...

(ل) المحبة: وهي من أهم أعمال القلوب، والناس فيها على أقسام:

✽ من عنده محبة العمل: وهو من يفعل ما يحبه الله، وإن كانت نفسه كارهة ولكنه يجبر نفسه على هذا، فهي تلومه على هذا وتشعر بالكراهية، فهذه أولى درجات المحبة.

✽ من عنده محبة القلب: وهو من يعمل ما يحب الله ونفسه راضية مختارة، وإن كان فيه خلاف ما تهواه نفسه، وهذه هي المحبة الحقيقية، وللوصول إلى هذه الدرجة أسباب:

١- متابعة السُّنة في كل صغير وكبير؛ فقد قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فالمحب الكامل هو الذي يتبع السُّنة في كل حركة وسكنة ولا يترك سنة علمها إلا ويعمل بها - إلا لعذر - كالوضوء كلما أحدث والمداومة على سنة ما قبل الخروج من البيت وما بعد دخوله، وغيرها من السنن، والله المستعان، فلا يزال العبد يداوم على النوافل حتى يصل إلى محبة الله بل ويحب الله ذاته؛ ففي الحديث القدسي يقول الله: «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به».

٢- داوم ذكر الله وبالأخص قراءة القرآن مع التدبر.

٣- اجتهاد العبد في الخشوع في الصلاة والإكثار منها.

٤- تذكر العبد وتفكره في نعم الله عليه، فالمحبة تنمو على حافات المنن، فمن الذي اختاره للإسلام وهو في ظهر أبيه آدم؟ ثم من الذي هداه إلى اعتقاد أهل السنة ولم يجعله من الصوفية أو الجهمية أو الأشاعرة أو المعتزلة أو جماعات التكفير والهجرة؟؟ فهذه نعم من الله على العبد بلا سبب من العبد.. فكما أثرك الله على ما سواك... فأثره على ما سواه... والله المستعان، وكذا يتفكر في أن الله لا ينقل عبده من حال إلى حال أو من مكان إلى مكان، إلا وله عليه في ذلك أفضال، ولو تفكر العبد في هذا لعلم صدق ما أقول.

٥- تفضيل الله على شهوات النفس والهوى؛ فإنها من أكبر ما يحول بين العبد وبين محبة ربه.

٦- المداومة على قيام الليل خاصة الثلث الأخير.

٧- المداومة على عبادة الدعاء والإكثار منها خاصة في ساعة الجمعة وفي السحر، وقد زدْتُ ذلك إيضاحًا في كتاب «حلاوة الدعاء»، والله الحمد والمنة.

عوائق الناس عن الوصول إلى هذه المحبة:

✽ ركض القلب وراء الشهوات من حب للمال وللجاه والسلطان أو اهتمام زائد بالملبس والمأكّل.

✽ تشتت العبد لقلبه في أودية الدنيا، فهو يسعى ليل نهار في تحصيلها وكسبها.

✽ حاجة العبد إلى العمل الكثير لينفق على نفسه أو أسرته خاصة مع ضيق الحال الذي يعاني منه أكثر الناس الآن.

✽ عدم فهم العبد لطبيعة سعيه في الطريق.

✽ عدم تحديد العبد لهدفه.

✽ عدم فهم العبد لطبائع نفسه وكيفية ترويضها.

علاج هذه العوائق:

١- أما عن جري العبد وراء الشهوات، فقد ذكرنا في أول الكتاب ضرورة سلوك طريق الإصلاح وأسباب ذلك، وكذلك بينا ضرورة جعل العبد لهمه همًّا واحدًا، وهو الوصول إلى رضا الله، وأن يكون سعيه الأكبر ليس في تحصيل الدنيا وإنما في إصلاحه لنفسه.

٢- أما عن حاجة العبد إلى الإكثار من العمل لينفق على نفسه أو أسرته، وربما ليتزوج خاصة لو خشي على نفسه من الفتنة، فهذا هو الأمر المشكل، إذ صاحبه طالب للهداية، ولكن الأسباب التي وضع فيها والظروف قد لا تلائمه.. وكم كان يشتكي إليّ الملتزمون بسبب هذا الأمر، وعلاج هذه المشكلة من وجهين:

(أ) بيان أن هذه الحال حال فاضلة يمكن استغلالها خير استغلال:

وذلك أن المحبة ميسرة لكل أحد ليست حكرًا على الأغنياء الذين وفرت لهم أساليب المعيشة... لا بل يسرها الكريم لكل أحد على حسب ظروفه، وعطايا الرب

متنوعة، وعلى قدر المثونة تأتي المعونة، فعن ابن المبارك أنه كان مع أصحابه في الجهاد فقال لهم: من حاله خير من حالنا؟ فقالوا: لا أحد... فقال: بل الساعي على أولاده ورزقهم خير منا والله لروعته من أجل ولده وبكائه خير من كل أعمالنا، وفي الحديث الصحيح: «ولو كان يسعى على أبوين كبيرين فهو في سبيل الله، ولو كان يسعى على نفسه يعرضها عن المسألة فهو في سبيل الله» فأقول لمن هذه حاله: لتتو بطلبك الرزق أن تقوم بالواجب من إعفاف ولدك وأهلك عن المسألة، فالواجب ثوابه أكبر من المستحبات، وقيام الليل وصيام النهار مستحبان، وما كان ثوابه أكبر كان إصلاحه للنفس أعظم، ثم أقول لأصحاب الهمم العالية: لينو أحدكم أن يكون قدوة لكل من كان في مثل ظروفه، فيقال يوم القيامة لكل من سعى على أولاده ولم يصل إلى المحبة يقال لهم: ها هو فلان كان في مثل حالكم ووصل إلى محبة الله فما حجتكم؟!!

إخواني... لا تحزنوا القلة المال وسعيكم على الأولاد... فوالله لسعي المخلصين منكم أفضل من سعي العباد... هم ينشغلون بالمستحبات... وأنتم تسعون في الواجبات... كثرة أوقات عبادتهم... قد تورث العجب والآفات... وقلة أوقاتكم... تورث النيات الصادقات... ما أقرب الفتور منهم لكثرة الأوقات... وما أبعد عنكم... إذ تشعرون بالتقصير في الطاعات... وما أقرب التوكل منكم... لانعدام الأسباب المطغيات.. وما أبعد عن كثير منهم... فطوبى لنفوس لما أقول واعيات...

(ب) بيان كيفية القيام بالعبادة والعلم مع هذه الحال؛

فنقول هذا العامل لا يخلو من حالين:

١- يستطيع مع عمله أن يقوم بذكر الله أو بسماع أشرطة دروس العلم كصيدي أو مهندس على كمبيوتر مثلاً أو عامل على آلة في مكان، وقس على هذا... فنقول له... قسم وقت عملك إلى فترات، ففترة تسمع فيها شرائط قرآن لتثبت حفظك

أو لينور الله قلبك إن لم تكن حافظاً، وفترة تسمع شرائط دروس علم منهجي كدروس فقه وتوحيد وتفسير وغيرها، وهذا والله من رحمة الله فهو الرحيم سبحانه؛ إذ كانت حياة السلف سهلةً بسيطةً وكان الرزق القليل يكفيهم، فهذا أحدهم يفتح دكانه فإذا باع حبة أغلقه وتفرغ للعلم والعبادة!! فلما أتى عصر الماديات وكثرت الالتزامات على الناس يسر الله لهم أسباباً في الدين لم تكن لدى السلف كالأشرطة والـ CDS وغيرها، فسبحان الرحمن الرحيم... فالواجب علينا استغلال هذا... فإن قال قائل: العلم يحتاج إلى تركيز وكتابة؟ قلت: كرر سماع الشريط الواحد مرتين وثلاثاً حتى تحفظ ما فيه، فإن قال: فالقرآن يحتاج إلى تدبر وتركيز، وقد لا أستطيع ذلك مع عملي؟ قلت: وجود الجو الإيماني حولك وكثرة ترداد سماع القرآن يؤثر في النفس... نعم تأثيره قد يكون أقل من تأثير جو التدبر، ولكنه أفضل من الغفلة، بل مع المداومة على هذا يتأثر القلب بإذن الله، ودليل هذا ما كنا نشعر به جميعاً أثناء حفظنا للقرآن ونحن صغار؛ كان الواحد منا يقرأ القرآن ليل نهار ليحفظ وبدون تدبر، وكان أحياناً كثيرة ما يجد نفسه تبكي وتتأثر مع أنه لم يكن يسعى للتدبر، ولكنه أثر القرآن العظيم في القلوب.

تنبيه:

لا يجوز انشغال العبد أثناء عمله بما يضيع العمل أو ينقصه عن الكمال؛ إذ صاحب العمل قد ائتمنه عليه ليؤديه على أكمل وجه، فإن كان المال مال هذا الشخص أو الدكان ملكاً له، فليصنع في مال نفسه ما يشاء.

٢- لا يستطيع مع عمله أن يقوم بهذا كالحافر والزارع في الأرض وغيرهما من الأعمال الأخرى، فهذا له حالتان:

(أ) يعمل جزءاً من النهار: فنقول له: عليك باستغلال وقتك في الذكر والتفكير قدر المستطاع، ولتجعل ما تشاهده في عملك تذكرةً بالآخرة، ولو كان ذكرك من غير تدبر، فهو خير من الغفلة، فإذا انصرفت من العمل، فلتشغل الوقت في العبادة والعلم.

(ب) يعمل طيلة النهار إلى وقت نومه: أو مجهوده الشديد يجعله ينام بقية النهار، فلا يكاد يتفرغ للعلم والعبادة، فنقول لهذا: اشغل عملك قدر المستطاع بالذكر والفكر، وإذا أديت الصلاة ونوافلها، فلتتضرع إلى الله بصلاح قلبك، فدعاء المضطر مستجاب، ثم أمامك ثلاثة مواسم تأخذ فيها الطاقة التي تغذي قلبك طوال العام، وهي:

١ - يوم الجمعة أو يوم إجازتك لو كان لك يوم آخر، فتخصص لنفسك وقتاً تسمع فيه درس توحيد ثم درس فقه، فهما العلمان الواجبان على كل عبد مسلم، ثم اشغل بقية اليوم في التطوع بصلاة النوافل وقراءة القرآن والذكر والاجتهاد في التدبر فيهما قدر الطاقة، ولا تجزع فوالله لا يضيعك الله أبداً وأنت تبذل قدر طاقتك، واصبر فإذا بنفسك شيئاً فشيئاً تشعر بحلاوة القرآن والذكر والصلاة، ولكن دُم على هذا إلى أن تصل بإذن الله... وطبعاً لا يتصور أن تكون مضيعاً لوقتك سواء أنت أو من كان له عمل يشغله مثلك، فلو قضيت أوقات عملكم في العمل وأوقات بيتكم في النوم والغفلة، فمتى تصلح القلوب؟

٢ - شهر رمضان فقم فيه بالعبادة من الذكر والصلاة وتدبر القرآن قدر المستطاع، ويا حبذا لو تفرغت تماماً في العشر الأواخر بالاعتكاف.

٣ - العشر الأوائل من ذي الحجة، فهي أفضل أيام العام، فاشغلها هي الأخرى بالعبادة، ولا تنس مع هذا دوام التضرع إلى الله والافتقار إليه بصلاح القلب، مع استغلال كل فرصة ممكنة لهذا، فإن قلت: فمتى أجالس أهلي وأولادي؟ قلت: صاحب المهمة العالية مع الشعور بالتقصير سوف يقلل من نومه وأكله كثيراً وسيحافظ على الأوقات، فإذا بالوقت يتسع لكل هذا، بل أقول: مع مداومة العبد على هذه الطريق وشعوره بالتقصير سيجد أنه قد صار يأخذ من أوقات نومه في أيام عمله، فيجعل بعضها لمجالسة الأهل والولد وبعضها للعبادة... فاثنان لا ينامان إلا قليلاً: القلق المشغول والمحبُّ المسرور،

أما المحبة فتنال أواخر الطريق، وأما القلق الشاغل فيسهل في أول الطريق على صاحب الهمة العالية، والله المستعان.

فإن قلت: فأين قيام الليل؟ قلت: كل عبادة لها غرضان: غرض لقيامها بوصفها، وغرض لإصلاح القلب بمفرداتها، فقيام الليل مثلاً مقصود منه أن تتعبد لله في الليل بالصلاة، ويقصد به أيضاً أن تصلح قلبك بالصلاة وقراءة القرآن مع التدبر، فإذا لم تستطع التعبد بالليل، فلتقم بما تقدر عليه من كثرة الصلاة وتدبر القرآن نهائاً حتى تصل إلى مرحلة أخذك من نومك لفرط السعادة أو لشعورك بالتقصير، فحينئذ تستقيم على قيام الليل ولو بعد حين.

٤- أما عن عدم فهم العبد لكيفية سعيه في الطريق: فعلى العبد أن يعلم أن الطريق تحتاج إلى صبر في البداية حتى يذهب ألم المكابدة، فتستقيم نفسه على الطريق حتى يصل. وعليه أن يفهم كذلك أن الطريق ليس تعذيباً لنفسه إنما هي تهذيب لها، فبدلاً من أن تكون شهوانية لا هم لها إلا الشهوات، إذا بها تزكو وتطيب، وإلا فإنه لا يتمتع بمباح الشهوات أحد مثل الزهاد؛ إذ النفس الشهوانية تسأم مع كثرة التمتع بالشهوات بخلاف الزاهد العاقل، فإنه يأخذ من المباح أخذاً طيباً لا إسراف فيه ولا بذخ، فهو يؤدي حق أهله من المعاشرة بالحلال ابتغاء الذرية التي تعبد الله، ويأخذ من الطعام ما يعينه على الطاعة والعبادة، فالأكل عنده وسيلة لا غاية، وهو كذلك يتكسب من المال ما يعف به نفسه عن مسألة الناس والحاجة إليهم دون طلب للعلو في الأرض والتعالي فيها، فإذا وجد العبد نفسه قد اقتنعت بهذا وسلكت الطريق راضيةً، فليحمد الله وليسأله الثبات، فإن امتنعت تضرع إلى ربه بهدائها، وحاول إقناعها ثانيةً، فإن وجدها لا تستجيب استعان بالله عليها وقسرها عن الشهوات وأجبرها على الطاعات متدرجاً معها، واستعان بربه على ثباته وهداية نفسه، وقد سبق - بحمد الله - بيان كيفية التدرج مع النفس.

أما عن عدم تحديد العبد لهدفه: فهذا عائق كبير لدى كثير من الناس فتجد المحب للعلم متحيراً هل يسلك طريق العلم أم يتعبد؟ وترى المحب للعبادة متحيراً هل يتعبد أم يسلك طريق العلم؟ فنقول: لو رأى العبد في نفسه حباً للعلم وهمّةً فيه وحباً لتعليم الناس، فليبدء به ولا يضع نفسه، فهذا هو عبد الله العمري الزاهد ينصح الإمام مالك بالعبادة، فأرسل إليه مالك رَحِمَهُ اللهُ أنه رأى نفسه تصلح للعلم، فجعلها فيه وهذا هو الفهم والفقه... فنقول للمحب للعلم: اسلك طريقه واقض أوقاتك فيه، فتعلم الواجب عليك واعمل بالواجب ثم تعلم المستحبات واعمل بالحد الأدنى من أصلها، ثم اشغل بقية الوقت في طلب العلم وتعليم الناس، وليكن تعلمك لا للشهرة ولكن لتعليم الناس الخير... وأقصد بالحد الأدنى من أصلها أن تصلي مثلاً من الضحى اثنتين أو أربعاً، وليكن لك ورد من أذكار الصباح والمساء، وهكذا فاصنع في كل العبادات.

ومن وجد في نفسه حباً للعبادة وشوقاً إليها، فنأمره أيضاً بتعلم العلم الواجب من توحيد وفقه والعمل به، ثم ليقض بقية وقته في العبادة والتفكير والذكر، وليجعل همه أيضاً أن يصلح نفسه ويعرف طريقة ذلك ليعلمها للناس وليبين لأهل العلم ما ذاقه من إيمانيات ليتكامل المجتمع المسلم، فأهل العبادة يكملون أهل العلم، وكذلك أهل العلم يكملون أهل العبادة.

ولكن لا بد للجميع من الصدق في الطلب وأما التخليط في طريق العلم فيطلبه أحياناً ويتركه أحياناً أو يشغل نفسه بأكثر من شيء، فهذا لا يصح، فليس للمرء إلا قلبٌ واحد، وكذلك على العابد ألا يضع وقته فيما لا ينفع بل يتفرغ لما هو فيه.

وكذلك الداعية عليه أن يتعلم العلم الواجب، ثم يدعو الناس إليه ويحفظهم القرآن، ويجالس المدعوين ليعينهم في مشاكلهم، ويساعدهم على الالتزام ويصدق في دعوته لله سبحانه.

٥- أما عن عدم معرفته بطبائع نفسه: فعلى العبد أولاً أن يعرف أن النفس إذا شعرت بالحرمان نفرت عن الطريق، فلا يُشعرُ نفسه بالحرمان بل يقنعها كما بينا من قبل، ثم لينظر في نفسه ما الذي يحفزها على العمل؟ فبعض النفوس يحفزها طلب الكرامات والأعطيات، فعلى هذا العبد أن يقرأ في سير الصالحين وكيف أكرمهم الله لما أطاعوه، وبعض النفوس تطلب الشهرة والإمامة للناس، فعلى صاحب هذه النفس أن يقنع نفسه بأن طريق الإمامة هو الالتزام بطاعة الله وسلوك طريق المعرفة، ولكن ليتنبه هذان الصنفان لأمرين:

(أ) أن يكون طلبهما للشهرة والإمامة أو للكرامة ليس لمدح الناس ومراءاتهم ولكن ليعلم الناس العلم وينفعاهم.

(ب) أن يعلم أن الإمامة والكرامة لا تأتيان سريعاً، فالأمر يحتاج إلى صبر، بل أعظم الكرامة أن يبارك الله للمرء في الوقت، وأن يوفقه للاستقامة على طاعته، فإن لم تأت الكرامة الحسية، فالكرامة المعنوية خير منها وأنفع.

✽ فإن قيل: كيف تصل النفس التي تطلب الكرامة والشهرة؟ قلت: هكذا قال السلف، فقد قالوا: «طلبنا العلم لغير الله فأبى إلا أن يكون لله»، وقد نهت على أن طالبهما من أجل مدح الناس وثنائهم لا يصل، أما من طلبهما لنفع الناس، فهما سببان لثيبته على الطريق، ثم مع ممارسته وخوضه في العلم سيذهب الله عنه هذا شيئاً فشيئاً، والله أعلم.

✽ وبعض النفوس تحب نفع الناس وتعليمهم وتوصيل الحق إليهم، فطريقها أحسن الطرق وأبعدها عن المهلكات، وإلا فالفارق بين من طلب الكرامة والإمامة لينفع الناس وليكون عملهم اقتداءً به في ميزان حسناته إبراهيم لما قال: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أو عباد الرحمن لما قالوا: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الفارق

بينهم وبين من طلبها للرياء كالشعرة، ولا يكاد ينتبه لهذا إلا المخلصون والله المستعان... ولكن معظم النفوس جبلت على محبة الإمامة والكرامة والله الموفق، فنقول لمن يجب نفع الناس: اطلب طريق المعرفة ولتكن نيتك أن يصلح الله نفسك، وتعرف كيف وصلت لتعلم الناس.

❁ وبعض النفوس فقدت الثقة في نفسها، فإذا بها لا تتصور لنفسها وصولاً ولا كرامة بل ترضى لنفسها بالأقل، فنقول لصاحب هذه النفس: لا تبخس نفسك حقها، فقد حكى ابن كثير عن رجل أنه بدء طلب العلم وهو ابن ستين سنة ومات وقد صار مجتهداً وهو ابن خمس وثمانين سنة!! وهذا رجل في الإسكندرية سجن من أجل بيع مخدرات، فخرج من السجن وهو ابن ستين سنة وكان أمياً والله، فتعلم اللغة العربية وحفظ كتاب الله في ستين، وحضر الدروس وصعد يخطب الناس مرة يوم الجمعة حتى إذا تشهد خراً ميتاً، فمات يوم الجمعة وبعد الشهادة وعلى المنبر!!!!

(ك) التوبة: وهي منزلة وعبادة لازمة لكل أحد، فقد قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وقال عَمَّنْ لم يتب: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وشروطها:

١- أن تكون لله وليست لمدح الناس، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: ٥).

٢- أن تكون قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها، ففي الحديث: «إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما يغفر»، وقال أيضاً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من تاب

قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه».

٣- الندم على الفعل، ففي الحديث: «الندم توبة».

٤ - العزم على عدم العودة إلى الذنب عزماً أكيداً.

٥ - الإقلاع عن الذنب وتركه.

٦ - رد الحقوق والمظالم إلى أهلها وتحللهم منها.

❖ ومن تاب من ذنب وأصر على غيره غفر له ما تاب منه على الراجح، فإن عاد إليه كتب عليه ذنب واحد طالما كان صادقاً في توبته.

❖ وحقيقة التوبة أن يعترف العبد بتقصير نفسه، وأن يداوم على الاستغفار من سيئاته وذنوبه، ويتحقق هذا بعدة أسباب:

١ - أن يداوم العبد على ذكر سيئاته؛ فقد قال العجالي: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِثَايِتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ وقيل: «نقش داود خطيئته في كفّه لينظر إليها كلما فتر عن العبادة».

٢ - قراءة العبد لسير السلف ليعلم تقصير نفسه الشديد، وليندم على ما ضيع من وقت في غير الطاعة.

٣ - أن يعترف العبد بعجزه عن ترك السيئات إلا بالله، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ويتحقق العبد هذا بما يراه من كثرة عودته إلى المعاصي التي ظن نفسه قادراً على تركها.

٤ - أن يكون العبد على خوف دائم هل قبلت توبته حقاً أم أنه لم يتب بالفعل؛ إذ توبتنا تحتاج إلى توبة.

٥ - أن يستبدل العبد بالرفقة السيئة رفقةً صالحةً تعينه على طريق الهداية.

٦ - أن يبادر العبد بالتوبة من كل سيئة اقترفها ولا يسوّف بالتوبة؛ لئلا يفسد عليه قلبه، ولئلا تضعف إرادة التوبة في قلبه كما أنّ المبادرة بالتوبة واجبة، وتأخيرها ذنب يحتاج إلى استغفار بجانب الاستغفار من الذنب نفسه.

عَوَائِقُ الْعَبْدِ عَنِ التَّوْبَةِ:

١ - إدمان العبد للمعصية حتى ينعدم من قلبه داعي التوبة، كهذا الذي أدمن النظر إلى النساء أو المردان حتى صار عاشقاً، فنقول له: أنت السبب في ذلك، ومثله من أدمن العادة السرية حتى استحال عليه تركها، فمثل هذا لا علاج له إلا أن يتداركه الله برحمته فيلهمه التوبة... فيا معشر الطائعين ادعوا الله لإخوانكم العصاة.... كم يشق على النفوس أن تحرم التوبة... أما سمعتم عن الثلاثة الذين خُلِّفُوا... كيف ضاقت عليهم الأرض الرحبة!! إخواني الطائعين.. أما تعلمون حال من غرق في الشهوات... فادعوا الله لهم في الخلوات.. فهم والله مساكين الأرض والسموات... واحذروا أن تظلموا أنفسكم مثلهم... فيحرمكم ربكم كما حرمهم... إخواني العصاة... لا تيأسوا من رحمة ربكم، فأنتم له عبيد... عساه أن يجعل من دعاء إخوانكم لكم السبب المديد....

٢ - اليأس من رحمة الله لكثرة تعثره في الذنب كلما تاب عاد، فنقول: علاج هذا المرض بعدة أسباب:

(أ) أن يعلم أن الفشل في التوبة ربما كان لثقتة في نفسه، وعدم اعتماده على ربه في التوبة، فإذا يأس العبد من نفسه ووثق في ربه، رزقه الله التوبة.

(ب) أن يعلم العبد ما الذي أوقعه في المعصية ثانية وثالثة، ويتفهم أسباب ذلك ليعلمها للناس، فإذا به يخرج من معصيته داعيةً إلى الله ومعلماً للخير، وكثير من النفوس إذا شعرت بالأمل عادت وسعت في الطريق.

(ج) أن يعلم العبد أن حاله هذه لو صدق الله فيها لاستفاد منها الكثير، وفي الحديث: «إن المؤمن خلق مفتناً تواباً» أي: كثير الوقوع في الزلل مع كثرة توبته وعودته في كل مرة إلى الله - بل العبد مع كثرة خطأه يتعلم آفات المعصية وأسباب الوقوع فيها

وغير ذلك من الفوائد... فالعبد المذنب التائب خير ممن لم يذنب لو تساوى في أعمال القلوب... فالعبد الفطن هو الذي يتفكر مع نفسه بعد وقوعه في المعصية ليعلم ما الذي استفاده من معصيته، فإذا أدام العبد هذا الباب صارت المعصية بعد التوبة منها نعمة يشكر العبد ربه عليها، وقد كان بعض الدعاة يقول: «ما عصيت الله قط إلا وحمدت الله بعد توبتي منها لكثرة ما أستفيد من المعاصي».

بل لو تفكر العبد في الأسماء الحسنی المرتبطة بوقوعه في المعصية لقام بقلبه من الإيمان ما لا يقع له مثله في الطاعة، فيتفكر في اسم الله الستير الودود الذي ستر عليه ولم يفضحه ولم يقبضه على المعصية بل أمهله حتى تاب، ثم يتأمل اسم الحليم الذي قبض له أسباب التوبة وصفح عنه، ويتفكر في اسم الله التواب الذي يفرح بتوبته كأنه لم يذنب ولم يخطئ، وفي اسمه الصبور والعفو والكريم فيحب الله أكثر من ذي قبل، بل وينشئ بقلبه الحياء من الله سبحانه على مزيد كرمه مع مزيد عصيان العبد، والله المستعان...

٣- شعور العبد بأنه لو تاب لحرم نفسه من السعادة بالمعصية، وهذا جهل عريض؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، ويشعر بهذا الضنك العبد العاصي الذي في قلبه بقية خير وإيمان، فإنه يتألم بالمعاصي جدًا أما الذي أدامها، فإنه ينعلم من قلبه التألم بالمعاصي لموت قلبه، فيصير كالأجرب الذي يهرش جلده ويشعر بالسعادة مع أنه في الحقيقة يدمي جلده وجسده، ثم يفيق في سكرات موته نادماً حيث لا ينفع الندم... وليعلم العاصي أنه لن يترك شيئاً لله فيجد فقداه أبداً... بل سيعوضه الله سعادة عظيمة تنسيه كل ما كان يعانيه في البداية لترك المعصية.

٤- إعراض العبد عن دواعي الخير في نفسه: فإنه إذا أدام المعاصي لا يكاد يفكر في التوبة إلا أن الله الرحيم بقي في نفسه نوازع خير لحضور درس علم أو خطبة الجمعة

أو سماع شريط أحياناً، فإذا وجد العبد هذا، فليستجب لهذا الداعي، فربما حضر الخطبة أو سمع الموعظة فأثرت فيه، فكانت بداية هدايته، وسبحان الهادي.

والناس في التوبة على أقسام:

فمنهم من يتوب من السيئات والمعاصي، ومنهم من يتوب من ترك المستحبات وفعل المكروهات، ومنهم من يتوب من فعل خلاف الأولى كالأنبياء والرسل، والله المستعان.

(ر) الخوف: وهو السوط الذي نصبه الله لرد العاصي عن معصيته، وهو من أكبر أسباب سهر العبد في الطاعة وقلة نومه وقلة تناوله للشهوات، ففي الحديث: «من خاف أدبج» أي سار في طاعة الله ليلاً كما يسير نهاراً كنايةً عن مداومة وملازمة الطاعة ليل نهار، وعن بعض السلف أنه قال: «خوف جهنم أطار النوم من عيني»، والخوف هو بداية الطريق للوصول لمنزلة الإحسان والله أعلم.

أسباب تحقق الخوف في قلب العبد:

❖ الخوف من سوء الخاتمة: وقد ذكرنا أسبابها في باب التفكير، وهو من أكبر أسباب الخوف؛ إذ الخواتيم مغيبة والنفوس لا تستحق الخير إنما الخير فضل من ربها، والله المستعان.

❖ الخوف من النار: ويتحقق ذلك في قلب العبد بالتفكير في عذابها والخلود فيه، ثم يتفكر في حال نفسه، وأنه قد يموت على غير الإسلام، فيفارق أهله وإخوانه المسلمين ويخلد في العذاب عياداً بالله من هذا.. اللهم أدخلنا الجنة وأجرنا من النار... اللهم أدخلنا الجنة وأجرنا من النار.. اللهم أدخلنا الجنة وأجرنا من النار....

✽ **الخوف من حبوط العمل:** بسبب الرياء أو العجب أو غيرهما من المحبطات، فيضيع عمل العبد هباءً منثورًا، وما أخوفني على نفسي وإخواني من قوله عز وجل: ﴿وَبَدَأْهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾.

✽ **خوف العبد من عدم قبول العمل،** فإنما يتقبل الله من المتقين، وقد قال بعض السلف: «لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة لتمنيت الموت».. فيا حسرةً على أعمال حبطت.. وأوقات قضيت فيه، فصارت ضائعات... إخواني... لا تركنوا إلى أعمالكم.. فما أدراكم أنها غير حابطات... وأملوا في رحمة الله.. فعنده كل الرحمت.

إخواني.. الأمر جد وخطير.. فأين منكم النفير.. من أجله تصدعت قلوب الصالحين.. فعجبًا للمطمئنين!!! أوعدتكم بدخول الجنات!! أم أنكم مازلتكم في الغفلات!!! أأمتكم سوء الخاتمة!!! أم أنكم تجهلون تلك الحقائق المخوفات... ادعوا لأنفسكم والمسلمين بالثبات.. وتضرعوا وابتهلوا.. فعسى دعوات أن تكون مجابات... ولكن أنبه على أنه لا بد من طريقة الاعتدال، فلو وجد العبد في نفسه الخوف بالفعل بحيث يستشعر تمامًا الخوف من هذا، فليفكر في الرجاء، وبالعكس لو رأى في نفسه الرجاء والاطمئنان ساق نفسه بسوط الخوف ليعتدلا، وإلا فالإفراط في تخويف النفس قد يؤدي إلى الاكتئاب والاضطراب النفسي.

فوائد الخوف:

١- سبب لاجتهاد العبد وسعيه في كل عمل صالح ولو كان صغيرًا، وترك كل سيئة ولو صغرت فهو لا يدري ما الذي ينجيه عند ربه، وقد قيل لبعض السلف: إلى متى هذا الاجتهاد؟ فقال: لعل العمل الذي ينجيني من النار لم أعمله بعد.

٢- يحقق الإخلاص في قلب العبد؛ إذ يجعله طالبًا بكل عمل يعمل به النجاة من النار، وقد كان بعض العلماء يكثر من إلقاء الدروس، فكان إذا سُئل يقول: لعل الكلمة

التي يرضى الله بها عني لم أقلها بعد... فنصيحتي لنفسي وإخواني أن يستحضروا هذا المعنى عند حضورهم كل درس وعند عملهم أي طاعة، فعسى أن ينجيهم الله!!

٣- يجعل العبد رقيق القلب سريع الدمع خاشعاً متدبراً، فالقلب الخائف رقيق بخلاف القلب الآمن.

٤- هو سبب للأمان في الآخرة، ففي الحديث: «يقول الله لا أجمع على عبدي أمنين ولا خوفين، فإن هو آمنني في الدنيا أخفته في الآخرة وإن خافني في الدنيا أمنت في الآخرة».

٥- يجعل العبد سريع التوبة من كل معصية عملها؛ لعلمه أنه ربما يحجره الإصرار عليها إلى سوء الخاتمة.

٦- هو سبب قلة نوم العبد وبعده عن الشبهات، فالقلب الخائف لا مكان فيه للتعلم بالدنيا، وهو كذلك أبعد القلوب عن الشبه خشية الوقوع في الحرام.

٧- هو سبب المقامات العليا في الجنة، فقد قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾.

(ز) الرجاء: وهو قائد العبد إلى الشوق والأنس بالله... وهو سبب المحبة وهو عبادة أولياء الله المقربين، فقد قال الله عنهم: ﴿وَيَدْعُوكَ رَعْبًا وَرَهْبًا﴾، ولا ينتفع بهذه العبادة القلبية العظيمة إلا من خاف من الله حق مخافته، فإذا بالرجاء ينزل على قلبه كالماء البارد للعاطش، أما الغافل فليس براج أصلاً؛ إذ لا رجاء إلا مع العمل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾.

إخواني.. رزقكم ربكم الإسلام وأنتم في ظهر آدم.. فأملوا في رحمته... ألم يغفر للبغى لما سقت الكلاب... فاسقوا البشر يكن لكم أعظم في الثواب... ألم يسامح من

أنظر المعسرین... فساحوا إخوانکم یرحمکم لکم الکریم... من رد إلى کریم دینار دین... قبله ولو کان زائفًا... فارجوه أن یقبل عملکم... ولو کان الخشوع ناقصًا... یکفیکم أن یرحمکم یوم القيامة بمقدار رحمة الوالدات... فکیف وهي جزء من رحمة واحدة، ویوم القيامة بقية الرحمت... إخوانی العصاة التائبین.. أخبرکم أنه سیدل السيئات حسنات... وسیشیب الکافر إن أسلم على الطاعات... المغفرة أسهل علیه من درهم تنفقونه.. فأین النفوس الراجیات!!! رحمته تستوجب الشکر والعمل... فأین النفوس الواعیات... ألم تسمعوا قول النبی لأکون عبدًا شکورًا... فأین النفوس المقتدیات!!! ارجوا رجاء من لو قیل: کلل یدخل النار إلا واحدًا لقال أنا هذا الناجی... وخافوا خوف من لو قیل: کلکم ینجو إلا واحدًا لقال أنا فی النار...

(ع) الإخلاص: هو أن یكون باطن العبد كالظاهر، وأکمله أن یكون الباطن خیرًا من الظاهر، وحقیقته أن یعمل العبد العمل لله لا یرید إلا ثواب الله، والناس فی هذا على أقسام:

✽ من یعمل العمل خالصًا للناس ولمدحهم، فهذا شرك أصغر، وإثمہ أكبر من الكبائر؛ ففي الحديث: «أخوف ما أخاف علیکم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الریاء».

✽ من یعمل لله ولمدح الناس معًا، فهذا لا ثواب له على الراجح؛ لحديث یقول الله تعالى: «أنا أغنی الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملاً أشرك فيه غیري، فهو للذي أشرك وأنا منه بریء».

✽ من یعمل لله وحده ابتداء ثم تأتيه أثناء العمل خواطر الرياء، فهذا إن استعاذ وطردها فكأن شیئًا لم یکن، فإن استقرت فيه أثیب لأصل النية، ویكون ثوابه ناقصًا لاستقرار الرياء.

علامات المخلص:

- ١- لا يفرح بمدح الناس ولا يحزن لذمهم؛ فهو يعمل لله وحده لا شريك له.
 - ٢- يجتهد في إخفاء طاعته كما يجتهد الناس في إخفاء سيئاتهم؛ لأن العمل إذا ظهر يكون أقرب للرياء.
 - ٣- لا يشعر لعمله بقيمة يطالب بسببها بالإحسان إليه بخلاف المراءى، فإنه ربما لو قام ليلة ثم أصبح ليشتري من الخباز مثلاً، لكان لسان حاله يقول للناس: ينبغي لكم أن تعظموني فقد قمت الليل البارحة.
 - ٤- يجتهد في غياب الناس عنه كما يجتهد معهم، فإن كان يعبد الله في غياب الناس ولكنه يزيد الطاعة معهم لتشجيعهم له، فهذا لا ينافي بالإخلاص بخلاف من لا يعمل إلا في وجودهم.
 - ٥- إذا اطلع الناس على صالح عمله حزن ولم يفرح بخلاف المراءى، فإنه يود أن لو اطلع الناس على عمله، كهذا الذي يصلي بالليل ويتمنى أن لو سأل الناس عنه أثناء صلاته ليقال: هو يصلي.
- فإن قيل: في الحديث «سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يعمل العمل فيطلع الناس عليه فيفرح لذلك؟ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»؟ قلت: هذا فيمن فرح لإظهار الله الجميل وستره على القبيح، فيجعل من هذا دليلاً على أن الله سيعامله هكذا يوم القيامة، أو هو محمول على مَنْ فرح بذلك لما يتبعه من ترحم الناس عليه ودعائهم له بالمغفرة بعد موته، فهو يرجو أن يقبل الله شهادة الناس له بالخير، ويغفر له ما لا يعلمه الناس عنه، فهو إذا فرح من خاف مغبة سوء عمله وأحسن الظنّ بربه، أو هو محمول على من فرح لوجود السمعة الحسنة الطيبة له بين الناس، وهذا أمر فطري، فقد قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ أي: حباً عند الناس وفي قلوبهم، فلو لا حب المؤمن لهذا لما امتنَّ الله عليه به، وكذلك في الحديث: «إذا أحب الله عبداً نادى على جبريل إني أحب فلاناً فأحبه ثم ينادي على الملائكة فتحبه ثم يوضع له القبول في الأرض»، فهذا فرح فطري لا مذمة فيه، أما الفرح المذموم فهو أن يفرح باطلاع الناس على عمله لكونه سيمدح بينهم، وسينال عندهم المكانة، فهذه علامة الرياء، والفارق بين الفرح المذموم والفرح الفطري لا يعرفه إلا أهل الإخلاص والعلم، والله المستعان.

دوام اتهامه لنفسه بعدم الإخلاص، فمن قال: أنا مخلص فقد راعى، والمقصود من ذلك لوم المخلص لنفسه لا الوسوسة المرضية التي تأتي بعض المرضى، فيشكون في أصل إسلامهم حتى يشك أحدهم هل هو مسلم أم لا؟ فهذا وسواس قهري له علاجه، وهو مرض بدني لا دلالة فيه على النقص الديني، والله المستعان.

ما يعين العبد على الإخلاص:

١- أن يقرأ ما ورد في فضل الإخلاص في الكتاب والسنة، وكذا يقرأ أحوال وأقوال المخلصين من السلف الصالح - رحمهم الله جميعاً -.

٢- علمه بأن المنافق يفضح في الدنيا ويوم القيامة، ولا تكون له عند الناس مكانة بخلاف المخلص، ففي الحديث: «من راعى راعى الله به ومن سَمَعَ سَمَعَ الله به» أي: من فعل العمل ليراه الناس فضحه الله، ومن قال ليسمعه الناس ويمدحوه فضحه الله أيضاً.

٣- علمه بأن الإخلاص هو الذي يبقى له الود المباح بين الناس «أعني حب السمعة الطيبة لا حب المدحة منهم»، ففي الأثر: «أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك يخفوا أعمالهم وعليَّ إظهارها لهم».

٤- علمه بأن العمل الذي يراعي فيه لا ثواب فيه بل فيه الإثم والعياذ بالله.

٥- إذا وجد في نفسه دواعي الرياء ولم يكن العمل واجباً عليه تركه، كما مام تأتية خواطر قوية للإمامة ليسمع الناس حلاوة صوته، فليترك الإمامة لغيره طالما وجد من يصلح للإمامة، وقد قيل: «إذا كرهت الإمامة فصل بالناس وإن أحببتها فلا تؤمهم»، وكذلك من دخل الناس عليه وهو يقرأ القرآن وجاءته خواطر قوية بحب مدحة الناس، فليترك القراءة حتى ينصرفوا.

تنبيهات:

ليس من الرياء الحياء من اطلاع الناس على معصية العبد أو تقصيره، فالحياء خلق المسلم، والمعصية عيب ينبغي التستر منه، فليس عيباً أن يستتر العبد لو عصى أو قصر، فعن بعض السلف أنه خرج ليصلي فوجد الناس قد صلوا فاستخفى حتى لا يراه أحد، ولكن لتكن نيته من ذلك الحياء لا خوف سقوط المنزلة عندهم، أو لينو منع الناس من المعصية؛ إذ ربما اغتابه البعض بلسانه أو بقلبه، والفارق بين الأمرين كالشعرة بل أقل، ولذلك أقول: من شك في نيته ووجد نفسه تقول له ماذا سيقول عنك الناس وستسقط منزلتك عندهم؛ أقول له: صل في المسجد بعد انصرفهم لتقطع من قلبك الرياء، بل ربما أورثك هذا خجلاً وتواضعاً، فلا تتكبر عليهم، أما لو كان الفعل معصيةً فلا يجوز إظهارها؛ إذ إظهارها نشر لها وتشجيع عليها، فالذي يظهره العبد إذا هو تقصيره لا معصيته، والله أعلم.

ورد في الحديث: «أن رسول الله ﷺ مر بأبي موسى الأشعري وهو يصلي بالليل فوقف يستمع لصوته وكان حسن الصوت فقال له النبي لما أصبح: لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة؟ فقال أبو موسى: لو أعلم أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً»، وليس معنى هذا أن أبا موسى كان يراعي بقراءته، وإنما يقصد أنه كان سيحسن صوته

إسعادًا لرسول الله ﷺ، وهذه طاعة أو ليزداد تدبر الرسول ﷺ،
فكذلك من أمّ الناس وحسن صوته ليتدبر الناس القرآن، فلا ينافي هذا الإخلاص
بخلاف من حسنه ليمدحه الناس، والفارق بينهما كالشعرة، ولذلك أقول أيضًا: من
شك في نفسه ووجد الخواطر تأتيه بتحسين صوته من أجل مدح الناس وكلامهم، فلا
يعرض قلبه للفتنة، فالسلامة لا يعدلها شيء، وليقدم للإمامة غيره، والله أعلم.

لو طلب العبد العبادة لما يريجوه من سعادة إيمانية أو طلبًا لزيادة الرزق مع نية
نيل الثواب من الله، لم يكن ذلك منافيًا للإخلاص بشرط كون المحرك الأساسي طلب
مرضاة الله، ودليل هذا أنه يعبد ربه، وإن لم يجد السعادة وإن لم يبارك له في الرزق، فإن
كان قد نوى متى زاد الرزق ونال السعادة استمر وإلا فلا، فهذا لا إخلاص عنده بل هو
من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه.

٤ - إذا أتى الشيطان العبد في العبادة وزين له تقصيرها لنظر الناس إليه، فلا يعبأ بكلامه
وليطول ما شاء، فإن طالبه بتطويلها رياءً استعاذ بالله منه وفعل ما يقتضيه حاله
ووقته؛ فليس من الإخلاص قطع العبادة خوفًا من الرياء إلا لو كانت مستحبة،
ووجد دواعي الرياء والفرح بمحمدة الناس قوية، فليقطعها كما فعل إبراهيم
التيمي حين دخل الناس عليه وهو يقرأ القرآن فقطع القراءة، والله أعلم.

٨- الاهتمام بتنقية القلب من المفسدات: وهي:

- | | | |
|---------------|------------------|------------|
| (أ) الحقد. | (ب) الحسد. | (ج) الكبر. |
| (د) سوء الظن. | (هـ) الأنانية. | (و) العجب. |
| (ي) الطمع. | (ن) البخل والشح. | (ل) الغضب. |
| (ك) العشق. | | |

(أ) الحقد: وعلامته أن يجد المرء في نفسه غيظًا كلما ذكر عنده المحقود عليه أو كلما سمع عنه الخير أو كلما مدح أمامه.

أسبابه:

- شعور العبد بنقصه عن المحقود عليه. - سوء الظن بالغير.
- وجود التنافس على الدنيا. - إساءة المحقود عليه إلى الحاقد.

علاجه:

١ - علم العبد بأن الحقد يأكل الحسنات ويفسد دين العبد؛ ففي الحديث: «فإن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر وإنما تحلق الدين».

٢ - أن يعود العبد نفسه على حسن الظن بالغير، وسيأتي - إن شاء الله - بيان كيف يتسنى للعبد ذلك.

٣ - أن يعلم الحاقد أن التفاضل ليس في أمور الدنيا إنما هو في أمور الدين، فإن كان حقه على طالب علم مثله أو عابد مثله، فالمعصية أكبر؛ إذ حقه دليل على عدم إخلاصه في عمله.

٤ - أن يستحيي الحاقد لو علم أخوه بحقه عليه، وتواجهها يوم القيامة، فماذا سيفعل؟

٥ - أن يجتهد الحاقد في الدعاء للمحقود عليه كلما أتاه هاجس الحقد؛ إذ الشيطان سيترك الوسوسة بالحقد إذا رأى وسوسته تسبب الخير للحاقد والمحقود عليه.

٦ - أن يجتهد الحاقد في إيصال الخير والإحسان إلى المحقود عليه حتى يصير له خلقًا، وقد قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

٧- أن يستشير الحاقدا أهل العلم بالنفوس ليتفهموا سبب الحقد، وينصحوه بالطريق المثلى لعلاجِه.

٨- أما المحقود عليه، فينظر في سبب حقد الحاقدا ويحاول علاجه، فربما كان السبب لظن الحاقدا أن المحقود عليه يتكبر ويتعالى عليه، فليتواضع له ليزيل الوحشة بينهما ولو بالمبالغة في ذلك، وقس على هذا.

فائدة: نظرة المرء إلى من أساء إليه على أقسام:

- ١- من يحقد على من أساء إليه ويكره له الضغينة، فهذه أسوء حال.
- ٢- من يحزن ويغضب ويخطئ في حق من أساء إليه في وجهه ليفرغ ما في نفسه، ثم بعد ذلك يلوم نفسه على ما فعل، فهذا أحسن حالاً من السابق.
- ٣- يحزن بمقتضى البشرية، ولكنه يمحو ذلك من قلبه سريعاً لكمال حلمه وخلقه، وهذه أعلى المنازل، فإن لم يقدر المرء على هذا الخلق، فلا يعجز أن يفرغ ما في قلبه في وجه من أساء إليه، ولا يحمل في قلبه حقداً له.
- ٤- من يحزن فلا يزال يلوم من أساء إليه حتى يجعله يعتذر إليه، فيتقبلها بسرعة كأنه كان ينتظر اعتذاره، وهذه حال طيبة أيضاً، وإن كانت أقل من السابقة.

(ب) الحسد:

وهو تمنى زوال النعمة من عند الغير، فإن تمنى مثلها مع عدم تمنى زوالها من عند الغير، فهذه هي الغبطة ولا حرمة فيها، وعليها يحمل حديث: «لا حسد إلا في اثنتين» أي: لا غبطة.

علامته:

✽ أن يجد العبد في نفسه تمنياً لزوال النعمة عن غيره، وفرحاً بزوالها أو فرحاً بسماعه الشر عن الغير.

أسبابه:

- ١ - حب الدنيا، ومن أجل ذلك يحسد المحبون لها من ينالها.
- ٢ - التنافس على الدنيا.
- ٣ - وربما كان السبب طبع النفس السيئ مما يجعلها تحب زوال الخير عن الناس وتريد لهم الشر.

علاجه:

- ١ - التفكير في عظيم إثمه عند الله لو حسد الناس وحقد عليهم.
 - ٢ - الزهد في الدنيا واحتقارها.
 - ٣ - العلم بأن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء، فلا يلومن الله في قضائه واختياره لتفضيل بعض عباده، وقد حسد أعداء الرسل الرسل، فقالوا لهم لعلاج حسدهم: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (إبراهيم: ١١).
 - ٤ - أن يعلم الحاسد أنه هو المتضرر بحسده، ولا يتضرر المحسود شيئاً كما قالوا:
- اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله
- ٥ - أن يعلم أن الناس ستمقته وتحتقره، وقد قالوا: «الحسود لا يسود».
 - ٦ - أن يدعو الله ويتضرع إليه بزوال الحسد عنه، وإذا رأى شيئاً أعجبه قال: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله» لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

قال الغزالي: «اعلم أن المؤذي ممقوت بالطبع، ومن آذاك فلا يمكنك ألا تبغضه غالباً، فإذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك ألا تكرهها له حتى يستوي عندك حسن حال

عدوك وسوء حاله، بل لا تزال تدرك في النفس بينهما تفرقة، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له، ولكن إن قوي ذلك فيك حتى بعثك على إظهار الحسد بقول أو فعل، فأنت حسودٌ عاصٍ بحسدك، وإن كفت ظاهرك بالكلية إلا أنك بباطنك تحب زوال النعمة، وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة، فأنت أيضًا حسودٌ عاصٍ؛ لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل، وأما الفعل فهو غيبة وكذب، وهو عملٌ صادر عن الحسد، وليس هو عين الحسد، فأما إذا كفت ظاهرك وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمقت نفسك على ما في طبعها، فتكون تلك الكراهة من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع، فقد أدت الواجب عليك، ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا، فأما تغيير الطبع ليستوي عنده المؤذي والمحسن، ويكون فرحه أو غمه بما تيسر لهما من نعمة أو تنصب عليهما من بلية سواء، فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه ما دام ملتفتًا إلى حظوظ الدنيا، إلا أن يصير مستغرقًا بحب الله تعالى، فقد ينتهي أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة وهي عين الرحمة^١. هـ. بتصرف.

قلت: وعلى من يجد في قلبه خواطر البغض - مع كراهته لما يجده من نفسه - عليه كذلك الدعاء والاستغفار لمن يجد في قلبه بغضًا له مع الإحسان الظاهري إليه بالقول والفعل، ولو تكلفًا حتى يصير ذلك له خلقًا.

(ج) الكبير:

وهو تعالي النفس على الغير بما تراه فيها من فضل منزلة أو جاه أو مال، أو لتعظيم الناس لها، أو ربما لشعور النفس بنقص في أمرٍ ما، فتتكبر على الناس لتفقد الشعور بالنقص.

علاماته:

١- عدم قبول المرء لنصح الناس له، وأسوأ منه من إذا نصح بعيبه ذكر عيب من ينصحه، وقال له أسوأ ما يعلم فيه، وهذا هو الجهل بعينه؛ إذ النصيحة هدية تقتضي شكرًا لا لومًا، ويكفي فاعل هذا دمًا قول النبي ﷺ عنه: «وإذا خاصم فجر» أي: ذكر في غيره أسوأ ما فيه، وربما ذكر خلاف الحق.

٢- من علاماته كذلك عدم مجالسته للفقراء والمساكين، وعدم إجابته لدعوتهم وأنفته أن يرى مخالطاً لهم أو ماشياً معهم.

٣- كذلك من علاماته شعور العبد بالتعاضم وعلو النفس عند ركوب السيارات أو لبس الملابس الفاخرة.

٤- كذلك من علاماته إصرار العبد على الباطل مع علمه بالحق خوفاً من سقوط منزلته عند الجماعة التي يرأسها أو عند من يعظمونه كشيخ.

علاجه:

١- أن يروض المرء نفسه على التواضع حتى يصير له عادة، فإنما الخلق بالتخلق.

٢- قهره لنفسه على مجالسة الفقراء ومخالطتهم حتى يتعود على هذا.

٣- أن يتعمد ترك الملابس الحسن ليروض نفسه على التواضع.

٤- لوم نفسه على كراهية النصح، وليستحضر الفائدة التي تعود عليه إذا قبل النصح وعمل به، وليعلم أنه لو أساء التعامل مع من نصحه لامتنع الناس من نصحه، فتبقى معه عيوبه بخلاف ما لو قبل النصح بصدر رحب لتشجع الناس على نصحه، والله المستعان.

٥- قراءة سير الصالحين وكيف تواضعهم ليتأسى بهم.

٦- دوام التضرع إلى الله بزوال هذا الداء من القلب.

٧- العلم بحقارة النفس، وأنها من تراب وتصير إلى تراب لتذل نفسه.

قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «الكبر وعزة النفس يغلق أبواب الخير كلها، فإنَّ العبد لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يجب لنفسه وفيه العز، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر على أن يدوم على الصدق وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصيح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصيح وفيه العز، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتياهم وفيه العز»^١هـ.

قلتُ: التواضع - الذي هو بخلاف الكبر - من أفضل الأعمال عند الله، وفي الحديث: «ما تواضع أحدٌ لله إلاَّ رفعه»، وعن عائشة: «إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات، التواضع»، وقال يوسف بن أسباط: «يجزي قليل الورع من كثير العمل، ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد»، وقال زياد: «الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر». وقال أحد الزهاد: «التواضع أحد مصائد الشرف».

(د) سوء الظن: وهو أن يحمل المرء أقوال وأفعال إخوانه على غير المحمل الحسن، وقد نهى الله عنه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ﴾.

ومن أكبر أسبابه: تكبر النفس وتعززها، وكذا فراغ النفس وانشغالها باللهو، فتتولد لديها الإرادات الفاسدة والظنون السيئة بخلاف النفس المشغولة بطلب العلم وتهذيب النفس وتنمية أعمال القلوب بها، ومن أسبابه كذلك عمى النفس عن عيوبها وانشغالها بمراقبة عيوب الناس.

والناس في سوء الظن على أقسام:

✽ من تأتبه خواطر قوية بأدلة يغلب على ظنه صدقها؛ كمن ظن في غيره الرياء، وتأكد ذلك لديه بما يراه منه من حب للشهرة والسمعة، فنقول له: اجتهد قدر الطاقة في دفع الخواطر، فإن لم تستطع فلا إثم عليك بشرط عدم السعي وراء التحقق من هذا، وعن الحسن أنه قال: «لا ينجو أحد من الظن، فإذا ظننت فلا تحقق»، فيحمل قوله على هذا المعنى، وعلى هذا المرء أن يكثر من الدعاء لهذا الذي يسيء الظن به، ولا يبين على هذا الظن تصرفاً كهجره مثلاً أو غيره لعدم تأكده بل عليه أن يستغفر ويدعو له كلما أتته هذه الخواطر.

✽ خواطر قوية تأتي العبد بلا دليل، فهذا ما يلام عليه العبد، وينبغي أن يجتهد العبد في إزالتها، وعليه بدوام التضرع إلى الله بزوالها، وعليه بالاستغفار لأخيه كذلك.

✽ ومن أكثر ما يعين العبد على ترك هذا الداء: انشغاله بالتفكير في عيوب نفسه، ومداومته على محاسبة نفسه ومراقبتها، فإن من انشغل بعيوب نفسه شغل عن عيوب غيره.

✽ ويعينه كذلك اطلاعه على سير السلف وأخلاقهم، وكيف كان اجتهداهم في ترويض النفس على حمل أقوال وأفعال إخوانهم على أحسن المحامل.

✽ ويعينه كذلك انشغاله بطلب العلم والعمل به، وكذا كثرة تفكره في الموت.

(هـ) الأنانية: وهو عيب لدى بعض الناس بسبب ما تربى عليه من حب النفس دون الغير، أو بسبب نشأته الانعزالية عن الناس.

علاماتها:

١ - أن يرى العبد نفسه محبباً لمدح الناس له وتعظيمهم له وذمهم للآخرين، فهو يحب أن يكون وحده عند الناس ذا المكانة والوجاهة.

٢- كذلك من علاماتها أن يفعل العبد ما فيه مصلحته هو دون نظر إلى غيره هل يتضرر أم لا؟ فهو لا يعرف إلا مصلحة نفسه.

٣- كذلك من علاماتها أن يكون العبد محباً لخدمة الناس له ليوفر على نفسه الوقت دون نظر إلى غيره هل يضيع وقته أم لا؟.

علاجها:

١- أن يعرف العبد ما في ترك الاهتمام بأمر المسلمين من مغبة، فلو كان يحب المسلمين حقاً لاهتم بحالهم وشأنهم.

٢- أن يعلم أنه لا يؤمن حتى يحب للناس ما يحبه لنفسه كما صح بذلك الحديث.

٣- أن يعرف ما في خدمة المسلمين من ثواب، ففي الحديث: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»، وفي آخر: «خير الناس أنفعهم للناس»، وفي ثالث يقول الرسول ﷺ: «ولأن أمشي في قضاء حاجة أخي المسلم أحب إلي من اعتكافي في مسجدي هذا شهراً» (صححه الألباني).

٤- أن يقوم الناس من حوله بعدم تلبية رغباته ليتعود على عدم الأنانية وعلى خدمة نفسه بنفسه.

(و) العجب: وهو شعور العبد بحسن عمله وحاله، وأنه أفضل من غيره.

أسبابه:

✽ الجهل بالعلم الشرعي وبآفات النفوس.

✽ حسن الظن بالنفس والرضا عنها.

✽ الجهل بما يستحق الرب من عبادة.

✽ كثرة مدح المحيطين به له واغتراره بمدحهم، وقد قيل: المدح ذبح.

علاماته:

- ١ - أن يجد العبد في نفسه شعورًا بحسن عمله، وأنه ينبغي للناس أن يبجلوه ويحبوه ويعظموه، بل ربما قالت له نفسه: إذا مت سيقول الناس مات عالم الأمة وعابدها أو الداعية فلان، وسيدرك الجميع بالخير.
- ٢ - كلما صنع شيئًا في السر استعظمه، وأحب أن تعرفه الناس ليعرفوا قدره وقيمته حق المعرفة.
- ٣ - أن يجد المرء نفسه تحدّثه بفضله وكأن له فضلًا على الدعوة وعلى الناس، فتقول له نفسه: كم حفظ الناس على يديك القرآن!! وكم تعلم الطلبة منك العلم!! وربما تفوّه بهذا.
- ٤ - يشعر بأن الناس كلها على خطأ، وأنه وحده على الحق، وأن رأيه ومذهبه هو الواجب الاتباع.
- ٥ - استحقاره لغيره، فكلما مر بقوم أو حضر درسًا رأى نفسه خير الحاضرين.

علاجه:

✽ التعلم الشرعي والعلم بآفات النفوس.

✽ أن يعلم المعجب أنّ العجب سبب لحبوط العمل وغضب الرب سبحانه.

✽ أن يعلم كذلك أنّ عمله كله آفات ونقص، وحق الرب لا يوفيه عبد أبدًا.

✽ أن يديم من تفكره في سيئاته وعيوبه، فإذا به لا يفرح لمدح الناس ولا يندع بكلامهم فيه، وقد قيل: «من عرف قدر نفسه لم يضره ما قيل فيه»، فمثل اللائم لنفسه والناس يمدحونه كرجل رسب في امتحان الدنيا وأخبر الناس بأنه ناجح، فإذا بهم يمدحونه ويهنتونه فهل يفرح لمدحهم؟ أم لعلمه بحقيقة الحال لا يفرح؟.

✽ أن يمتنع الجهلة من مدحه، فالقلوب ضعيفة وما أسهل العجب عليها.

✽ أن يصادق العبد المعجب الإخوة الأفاضل الذين يبنون له عيبه وينصحونه لا من يمدحونه على خطبته أو درسه أو قراءته.

✽ إذا أحس العبد بخاطر العجب في نفسه أذل نفسه لله أمام الناس كما صنع عمر لما خطب الناس، فذم نفسه ثم نزل، فاستعجب الناس له، فقال: «حدثني نفسي وقالت أمير المؤمنين بخ بخ فأحببت أن أذلها»، فمع عدم وجود نقص كبير، إذ هو مجرد خاطر نادرًا ما كان يأتي عمر إلا أنه أراد قطعه بالكلية ليصل إلى مرتبة الصديقية الكبرى كأبي بكر.

تنبيه:

✽ إذا وجد العبد في نفسه عجبًا زائدًا بعمله ومراعاة لمدح الناس له، فليظهر عيبه وخطأه، فلو فاتته جماعة أو تكبيرة الإحرام أو صيام نفل أظهر ذلك للناس لتسقط منزلته عند الناس وليمحو من قلبه هذا الأمر بخلاف من لا يجد العجب في نفسه ولا يهتم بكلام الناس، فإخفاء ذلك أولى به، وقد مضى ذكر ذلك.

(ي) الطمع:

✽ وعلامته حب العبد لأن يكون ممتلكًا لأحسن الأشياء دون غيره، فهو يرغب في تملك أفضل الأشياء، فيتمنى أن لو تزوج أجمل امرأة أو امتلك أفخم سيارة وأحسن مسكن.

✽ وربما لو وجد عند غيره شيئًا حسنًا لقارنه بما عنده، فيقارن زوجته بزوجات الآخرين، ومسكنه بمساكن الآخرين رغبة في أن يكون ممتلكًا لأفضل شيء.

علاجه:

١ - الزهد في الدنيا وما في أيدي الناس .

٢ - أن يقنع العبد بما آتاه الله، ويعلم أنه لو رضي به لجعله الله في عينه أفضل شيء، بل ربما كانت الحقيقة كون ما عنده أفضل مما عند غيره، ولكن الشيطان يطمعه ويزين له ما عند الآخرين .

(ن) البخل والشح:

والناس في هذا على أقسام:

١ - من يبخل على نفسه في أمور الدنيا من ملبس وغيره، وفي أمور الآخرة من صدقة وغيرها، وهذه أسوأ الأحوال، وفي الحديث: «وأي داء أدوأ من البخل» (رواه مسلم).

٢ - من تجود نفسه بأمور الدنيا والآخرة معاً، فهو يشتري لنفسه الملبس الحسن الثمين، ويحج ويتصدق ويعتمر، فهذا أفضل من السابق بكثير.

٣ - من تجود نفسه بأمور الآخرة ويقتصد في الدنيا، فلا ينفق في أمور الدنيا إلا فيما يحتاجه هو ومن يعول دون تقتير، ولكنه في أمور الآخرة يجود بكل ما يملك، فهو يرى من الغبن أن يأكل أحسن المأكّل ويشرب أفضل المشارب، ولا يتصدق بهذه الأموال، فهذا إن شاء الله أفضل الثلاثة بشرط عدم إخلاله بالمروءات والنفقات اللازمة.

قال الغزالي: السخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة، فإن منع واحداً منها فهو بخيل، ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل، وواجب الشرع كالزكاة والنفقة على الأهل والعيال ونحوها، وأمّا واجب المروءة فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات، فإنّ ذلك مستقبح، واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص، فمن

كثير ماله استقبح منه ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة، ثم تبقى درجة أخرى، وهو أن يكون الرجل ممن يؤدي الواجب ويحفظ المروءة، ولكن معه مال كثير قد جعله عدة على نوائب الزمان، فإمساك هذا المال عن صرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين بخُل عند الأكياس، وليس ببخل عند عوام الخلق.

علاج البخل:

✽ أن يقرأ البخيل ما ورد في ذم البخل من أخبار وقصص.

✽ أن يجبر العبد نفسه ابتداءً على الجود، ويداوم على تكلف أفعال الأسخياء حتى يصير له خلقاً.

✽ أن يتضرع العبد إلى الله بزوال هذا العيب.

✽ أن يعلم العبد أن الصدقة لا تنقص المال كما صح في الحديث: «ما نقص مال من صدقة».

✽ أن يعلم العبد إمكانية زوال المال في أي وقت، وربما احتاج إلى مال، فمن أحب أن يجود الناس عليه، فليجد هو الآن عليهم.

✽ مخالطة العبد لأهل الكرم والسخاء وقراءته لسيرهم، فهو من أكبر أسباب الجود.

(ل) الغضب:

قال الغزالي: «قوة الغضب محلها القلب، ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام، وإنما تتوجه قوة الغضب إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها، وإلى التشفي والانتقام بعد وقوعها، والانتقام هو قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها، ولا تسكن إلا به، والناس في هذه القوة على درجات ثلاث: التفريط والإفراط والاعتدال، أما التفريط: فبفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم، وهو الذي يقال فيه: إنّه لا حمية له، وقد وصف تعالى

أصحاب النبي ﷺ بالشدة والحمية، فقال: ﴿أَشَدُّ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفج: ٢٩)، وقال لنبیه ﷺ: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التَّحْدِيدُ: ٩)، وإنَّما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب، وأما الإفراط: فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار، ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام، حتى تحمر الأحداق وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة، ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياءً من قبح صورته واستحالة خلقتة، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره، فإنَّ الظاهر عنوان الباطن، وإنما قبحت صورة الباطن أولاً ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانيًا، فهذا أثره في الجسد، وأمَّا أثره في اللسان، فالشتم والفحش من الكلام الذي يستحي منه ذو العقل، ويستحي منه قائله عند فتور الغضب، وذلك مع تحبط النظم واضطراب اللفظ، وأمَّا أثره على الأعضاء، فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة، وقد يضرب بيده على الأرض ويعدو عدو الواله السكران، وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة مثلاً على الأرض، وقد يكسر المائدة إذا غضب عليها، ويتعاطى أفعال المجانين، فيشتم البهيمة والجمادات، وأمَّا أثره على القلب مع المغضوب عليه، فالحقْد والحسد وإضرار السوء والشماتة بالمساءات والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السر وهتك السر والاستهزاء وغير ذلك من القبايح^١. هـ. ملخصاً.

فَضْلٌ

قال الغزالي: «ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

(أ) ما هو ضرورة في حق الكافة؛ كالقوت والمسكن والملبس وصحة البدن، فمن قُصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب، وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذي يستر عورته، فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها، ومن الغيظ على من يتعرض لها.

(ب) ما يكون ضروريًا في حق بعض الناس دون البعض، كالكتاب مثلاً في حق العالم لأنه مضطر إليه، فيحبه فيغضب على من يحرقه ويغرقه، وكذلك أدوات الصناعات في حق المكتسب الذي لا يمكنه التوصل إلى القوت إلّا بها.

(ج) ما ليس ضروريًا لأحدٍ من الخلق؛ كالجاء والمال الكثير والدواب، فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الأمور حتى صار الذهب والفضة محبوبين في أنفسهما فيكتزان، ويغضب على من يسرقهما، وإن كان مستغنياً عنهما في القوت، فهذا القسم ممّا يتصور أن ينفك الإنسان عن أصل الغيظ عليه، ويمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه، إذ يمكن إخراج حبه من القلب، وذلك بأن يعلم الإنسان أنّ مستقره الآخرة، وأنّ الدنيا معبر يعبر عليها ويتزود منها قدر الضرورة، وأمّا القسم الأول والثاني، فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب، ولكن لكي يقدر على ألا يطيع الغضب ولا يستعمله في الظاهر إلّا على حدٍّ يستحبه الشرع ويستحسنه العقل، وذلك ممكن بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدّة حتى يصير الحلم والاحتمال خلقاً راسخاً، فأمّا قمع أصل الغيظ من القلب، فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن، نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن، وينتهي ضعفه إلى ألا يظهر أثره في الوجه، ولكن ذلك شديدٌ جدًّا^١ هـ. بتصرف.

فَضْلٌ

ويعين العبد على كظم غيظه أشياء منها:

✽ اطلاعه على ما ورد في الكتاب والسنة وأقوال الصالحين من فضل كظم الغيظ والحلم والعفو والاحتمال، فيرغب في ثوابه، فتمنعه شدة الحرص على الثواب، تمنعه من التشفي والانتقام.

✽ أن يُحذّر نفسه عاقبة العداوة والانتقام، فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا والآخرة.

✽ أن يخوّف نفسه من عقاب الله ويستحضر قدرة الله، وأنها أعظم من قدرته على من يريد الانتقام منه، فلا يأمن إن أمضى غضبه على مخلوقٍ مثله أن لا يعفو الله عنه يوم القيامة.

✽ أن يتفكر في قبح حاله وصورته عند الغضب، وأنه حينئذ يشبه السبع الضاري، وأمّا الحليم الهادي التارك للغضب، فإنه يتشبه بالأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء.

✽ أن يعلم أنّ ما أغضبه إنما وقع وفق مشيئة الله وإرادته، وعلى خلاف مراده هو، فكيف يكون مراده أولى عنده من مراد الله.

✽ أن يستعيز بالله من الشيطان الرجيم كما أمر الرسول ﷺ، ويتوضأ كما ورد في حديث آخر، ويجلس إن كان قائماً ويضطجع إن كان جالساً كما في حديث ثالث.

✽ أن يجعل على نفسه عقوبةً إن هي استجابت لداعي الغضب ولا يتهاون معها في ذلك.

✽ إن لم يمكنه استحضار هذه المعاني عند الغضب، فلا بأس بكتابتها في ورقة حتى إذا هجم عليه داعي الغضب قرأها ليسكن غضبه، وعن بعض الملوك الحكماء أنه كتب كتابًا ودفعه إلى وزيره وقال له: إذا غضبت فناولنيه، وكان فيه: مالك وللغضب، إنما أنت بشر، ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء.

✽ الاجتهاد في الأعمال الصالحة والالتزام بالتقوى، فكلما زادت تقوى العبد لربه كلما سهل عليه كظم غيظه، وذلك لقربه من ربه وبُعد الشياطين عن قلبه، والعكس كذلك صحيح، وعن عائشة أنها قالت: «لله دُرُّ التقوى ما تركت لذي غيظٍ شفاء»، وقال بعض السلف: «أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب»، وسُئِلَ عليّ: ما الذي يُباعد العبد عن غضب ربه؟ فقال: «ألا يغضب».

(ك) العشق:

وهو الداء العضال أعاذنا الله والمسلمين منه، وهو تعلق القلب بالغير لجمال صوت أو جمال صورة أو جمال خلق سواء أكان الغير رجلاً أم نساءً.

علامته:

✽ شعور النفس بالضيق الشديد لفقدان رؤية المعشوق حتى أنها لا تكاد تستطيع العبادة.

حالاته:

١- أن يحدث بسبب مباح كعشق الرجل زوجته والعكس فهذا غير محرم، فإذا حدث أن انفصلا، فعلى الناس أن يشفعوا إلى الطرف الآخر بالرجوع إلى عشيقه؛ فقد شفع رسول الله ﷺ إلى بريرة لترجع إلى زوجها الذي عشقها وانفصلا، فإن لم يحدث ذلك، فعلى العاشق أن يترك أماكن تواجد المعشوق بل على المعشوق أن يترك أماكن تواجد العاشق، لأنه يشق على العاشق أن يترك هو أماكن المعشوق.

تنبيه: وصول الزوج أو الزوجة لدرجة العشق مباح، ولكنه نقص كمال؛ إذ القلب الكامل لا يتعلق بغير الله، والله المستعان.

٢- أن يحدث العشق بسبب محرم كإدمان نظر أو إدامة فكر وغيره، فهذا حرام.

علاجه:

✽ يشق جدًا علاجه، ولكنه سهل يسير بإذن الله، وإنما شق علاجه لأنه من وصل إلى هذه الحال، فإنه يصير خالي البال من التعلق بالله، وفارغ النفس عن الشغل بالله، فيشق عليه ترك العشق، ولكنه ما من داء إلا وله دواء، ويتلخّص علاج العشق في الوسائل الآتية:

✽ إقناع العاشق نفسه بحرمة ما فعل، وأنه ربما أدّى به العشق إلى الشرك الأصغر الذي قد يؤدي إلى الشرك الأكبر لما فيه من التعلق بغير الله، وربما كان لسان حاله ينادي بحبه لرضا المعشوق أكثر من رضا الله، والعياذ بالله.

✽ طلب العاشق الجازم والحقيقي لشفائه من هذا الداء أما من لم يرد ترك العشق، فكيف يشفى منه؟!!

✽ تزوج العاشق إن أمكن، إذ عند المرأة كل ما يطلبه العاشق من معشوقه، وقد قيل: «ما رؤي للعاشق مثل الزواج»، وفي الحديث: «ما رؤي للمتحابين مثل الزواج».

✽ التضرع إلى الله واللجوء إليه بزوال هذا الداء العضال من القلب، فالمضطر لا ترد دعوته.

✽ شغل العاشق لنفسه بما هو نافع في دينه ودنياه لينسى المعشوق.

✽ سعي المعشوق بكل ممكن ليأس العاشق من رؤيته ثانية أو سماع صوته بل عليه أن يترك التواجد في أماكن وجود العاشق بالكلية.

❁ سؤال العاشق لأهل العلم عما ينبغي عمله لزوال هذا الداء بل ليسأل المعشوق كذلك، فنادراً ما يحاول عاشق إزالة هذا الداء عنه بخلاف المعشوق، فقد يسعى في التخلص من تعلق العاشق به.

موعظة في الآفات،

إخواني... إياكم وفساد ذات البين... ففيها كبائر بغير مين... ألم يقل الرسول ﷺ: «هجر المسلم سنة كقتله»... فأين منكم بكاء العين... أيجد أحدكم على أخيه... ونحن في وقت غربة الدين؟؟؟ عجباً والله وأنتم ترون قلة الملتزمين!! ماذا تركتم لأهل الدنيا والمفسدين؟! توبوا إلى الله... تصافوا... تحابوا... عسى أن تكونوا إخواناً على سرر متقابلين... طوبى لمن يادر أخاه بالصلح فهو الخير... وبئس لعبد أعرض فهو العاصي المهين....

إخواني... ما هذه الدنيا التي تتحاسدون عليها... ألم يحذركم الله من الركون إليها؟! ما لكم تكرهون الخير للناس؟!... أين من كان يضحي من أجل إخوانه بالمطعم واللباس؟... الحاسد مهين لا يسود... والحاقد لن يستقيم له على الخير عود... أتחסدون الكافر على الدنيا، وهو إلى النار صائر؟؟ أم تحسدون المؤمن الغني، وماله بين الفقراء دائر؟! أتمنون زوال النعمة عن الفقراء... أم تكرهون ما قدره رب الأغنياء؟؟... أليس هو الذي أغنى هذا وأفقر ذاك؟؟ من حسد بعد كلامي هذا... كان والله من الأشقياء...

إخواني.. ما لكم تعجبون بأعمالكم وهي منة الله... بل هي والله قليلة... فمن منكم صديق أو أواه؟؟.. فتباً للمعجيين العصاة... أترون أنفسكم أفضل من الناس.. ما هذه بتقاة.. أتمنون على الدعوة بعملكم؟؟... هكذا فعل الطغاة... لا تعجبوا بمدح المداحين.. فهم لفسادكم سعاة.. وإذا واجهوكم بالمدح... فاحثوا التراب في الأفواه.

إخواني.. ألم تسمعوا بجمود عمل المعجبين؟؟.. فلا تكونوا بأعمالكم مدلين
«معجبين»... أذلوا أنفسكم لله.. فما أحبه للمتواضعين.. وأخلصوا العمل لله... فما
ينجو غير المخلصين.. تزودوا من العلوم أكثر... تدركوا كونكم جاهلين... واقرأوا
كتاب الحلية.. توقنوا ما كنتم متعبدين... واسألوا عن مشايخ الدعوة... تقولوا ما كنا
دعاةً صادقين... فطوبى لمن قبل النصيحة... وخاب من كان من المعرضين...

الفصل الرابع

أنواع السالكين لطريق تهذيب النفس

الطرق الموصلة إلى محبة الله والمعرفة به والإحسان في طاعته - والله أعلم - أربعة

وهي:

- (أ) طريق العلم.
- (ب) طريق العبادة.
- (ج) طريق الدعوة.
- (د) طريق سلامة النفس والصدر، وحسن الخلق.

(أ) طريق العلم:

❖ وفيها يتفرغ السالك لدراسة العلم وتدريسه وقراءته وتحصيله، ولكن لا ينسى الالتزام بأساسيات الطريق، ولو بأخذ الحد الأدنى من كل شيء.

❖ وهي أفضل الطرق وأحسنها لأسباب منها:

❖ أنه ينال ما عند كل فريق من خير، فهو يدعو إلى الله بعلمه وإلقائه للدروس، ويتعبد لله بما يتعلم من مسائل وأحكام في العبادات التي ربما لا يعلمها غيره، فكم من سنة لا يطلع عليها إلا العلماء؛ كسنة صلاة ركعتين عند دخول البيت والخروج منه، ثم له فضل العلم على الآخرين.

❖ أن الرسول ﷺ اختار لنا الأفضل، فقال: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم».

❖ أن لذة العلم تنال بسرعة، فيسهل على طالبه المواصلة في الطريق بخلاف لذة العبادة، فقد تأتي بعد حين.

❖ العالم وطالب العلم لا يكادان يصيبهما الكسل والفتور لأن لذة العلم لها أسباب كثيرة كطلب الشهرة، فهذا وإن كان خطأ إلا أنه من أسباب تشجيع طالب العلم على

استمرار طلبه، ثم بعد ذلك يهذب العلم إن شاء الله، وقد قال بعض السلف: «طلبت العلم لغير الله فأبى إلا أن يكون لله»، وفي الحديث: «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال».

✽ حاجة الأمة إلى العلماء أكبر وأكثر من حاجتهم إلى العباد.

✽ طريق العلم أيسر - إن شاء الله - في ظل هذه الحياة المادية خاصة مع كثرة المشاغل التي قد تعوق طريق العبادة نوعاً ما، والله أعلم وهو المستعان.

تنبيه: ليس معنى تفضيل طريق العلم أن طالب العلم خير من العابد والداعية وحسن الخلق، فأفضل الأربعة هو أصلحهم قلباً وأتقاهم لله، فهذا أويس القرني يخبر النبي ﷺ بكونه أفضل التابعين مع كونه ليس أعلمهم قطعاً - نعم - كثيراً ما يكون طالب العلم أفضل الأربعة؛ لحديث: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»، ولكن قد يتخلف هذا أحياناً.

✽ فإذا عزم السالك على بدء طريق العلم، فليحذر من آفات قد تعرض له وهي:

✽ أن يشغل بالعلم عن الواجبات كصلة الرحم وصلاة الفجر، أو عن المستحبات كقيام الليل وصلاة النوافل والأذكار.

✽ أن يعجب طالب العلم ويظن نفسه خيراً من العابد والداعية، وينظر إليهم على أنهم جهال.

✽ أن يهمل جوانب الدعوة والعبادة والاهتمام بسلامة الصدر، فإنها أساسيات.

✽ أن يكون غرضه من العلم المباهاة والمفاخرة ومدح الناس له.

علاج هذه الآفات:

✽ أن يعلم هذا الطالب أنه إن لم يعمل بالعلم، فكأنه لم يحصل شيئاً بل ربما قيص الله له ما يضيع وقته من نوم أو أكل أو غيرهما.

✽ أن يعلم كذلك أنّ صلة الرحم تبارك في العمر والوقت، وكذلك العمل الصالح، فما يقضيه من أوقات في هذه الواجبات والمستحبات إنما هو زيادة في عمره الذي يتعلم فيه.

✽ أن يعلم هذا الطالب أنّ ازدراء الآخرين جريمة كبرى تحبط العمل، وليس معنى كون طريقه هي الأفضل أن يكون طالب العلم أفضل من العابد بل التفاضل عند الله بما في القلوب.

✽ أن يضرب بسهم في كل طريق لأن الإنسان عدو ما يجهل.

قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «إنما يزداد بعض الناس بالعلم كبراً وأمناً لسبيين:

(أ) أن يكون اشتغاله بما يُسمّى علماً وليس علماً حقيقياً، وإنّما العلم الحقيقي ما أثمر معرفة العبد بربه وبنفسه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فَاطِمَةُ: ٢٨).

(ب) أن العبد قد يخوض في العلم وهو خبيث الدخلة رديء النفس سيئ الأخلاق، فإن لم يشتغل بتهذيب نفسه وتركية قلبه ولم يُرَضْ نفسه في عبادة ربه، فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم - أي علمٍ كان - صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً، فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره.

وقد ضرب وهب رَحِمَهُ اللهُ لهذا مثلاً فقال: «العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً، فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها، فيزداد المرّ مرارةً والحلو حلاوةً، فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها» اهـ. بتصرف.

تنبيهات لطالب العلم:

١- خطوط العلم الرئيسية أربعة لا تنقطع حتى يموت العبد وهي: الفقه، التوحيد، التفسير، الحديث، فكلما قرأ العبد كتاباً في الفقه أو الحديث أو التفسير أو التوحيد، وانتهى منه قرأ آخر وهكذا أبداً، ولكن عليه بتقديم الواجب من علوم الفقه والتوحيد حتى ينتهي من الواجب ثم يدرس المستحب.

٢- من الفقه: الاهتمام بالعلم المخدم أكثر من الخادم، فليس من الفقه أن يشتغل المرء بعلم الأصول والمصطلح، وهو جاهل بواجبات التوحيد والفقه.

٣- لا بد من تلقي العلم على أيدي المشايخ، وأحسن ما يكون في الفقه شرائط الشيخ أحمد حطية لشرح منار السبيل وشرائط الشيخ ياسر برهامي لشرح كتب التوحيد التالية «منة الرحمن، فضل الغني الحميد، فتح المجيد، معارج القبول».

٤- على طالب العلم استشارة العلماء والمشايخ قبل البدء في قراءة الكتب لينصحوه بما فيها من أخطاء، وليختاروا له الأفضل من الكتب.

٥- من الهام تكرار سماع العلم ودراسته خاصة شرائط فقه منار السبيل فسماعها أكثر من مرة يثبت المعلومة، وأما شرائط التوحيد فالكتب التي ذكرتها تعاد فيها المعلومة كثيراً، فيسهل حفظها وعدم نسيانها.

٦- لا بد من كتابة العلم وراء المشايخ، وقد قيل: «العلم صيدٌ والكتابة قيده».

(ب) طريق العبادة:

وفيهما يتفرغ المرء للعبادات والأوراد والأذكار، فهذه طريق طيبة توصل إلى الله لكن لا بد من تحصيل العلم الواجب من الفقه والتوحيد، وليحذر سالك هذه الطريق من عدة آفات قد تعرض له وهي:

✽ أنه ربما احتقر غيره، وقال: طالب العلم يطلب الظاهر وأنا أطلب الباطن.

✽ وربما ترك تعلم الواجب من التوحيد والفقه، فيجهل عقيدة القضاء والقدر، وكيفية الوضوء، وغيرها من الواجبات.

✽ وربما رأى أو سمع بعبادته لينال مدح الناس.

علاج هذه الآفات:

✽ أن يعلم العابد أنه إن لم يحصل العلم الواجب، فسيقع في البدع وتصير عبادته مأثماً.

✽ أن يعلم العابد أن الدين يقوم بالعلم، فنفع العلم خير من نفع العبادة، فعبادته قاصرة على نفسه ونفع العلم متعدي، فلا يحقرن من شأن العلم.

✽ أن يحذر من الرياء والسمعة، وليراقب نفسه دوماً حذراً من العجب.

(ج) طريق الدعوة:

وفيها يهتم السالك بتعليم الناس ما علمه من خير ولو كان قليلاً، وبتحفيظ الناس القرآن، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالجهد في سبيل الله لنشر مبادئ الدين، فهو يبغى الخير للناس، فهذه طريق عظيمة النفع، ولكن ليحذر السالك فيها من بعض الآفات التي قد تعرض له وهي:

✽ نسيان الاهتمام بإصلاح النفس بالعلم والعمل الواجبين والمستحبين.

✽ تضييع الداعية لوقته فيما لا ينفع بحجة دعوة الناس وتحبيبهم في الدين.

علاج هذه الآفات:

✽ استحضار قول النبي ﷺ: «لا يكن أحدكم كالشمعة يضيء للناس ويحرق نفسه».

✽ أن يعلم أن قبول دعوته مرتبط بحاله مع الله، فكم رأينا من عباد وعلماء نجحوا في دعوتهم، بخلاف الداعية الجاهل بالعلم الكسول عن العبادة.

✽ أن يحافظ الداعية على وقته، وليعلم أن حرصه على وقته أمام المدعو سيزيد من مكانته وصورته في قلبه، فيقتدي به المدعو أكثر، بخلاف ما لو قلّت هيئته وأضاع وقته لسقط من أعين المدعويين.

✽ أن يعلم الداعية أن المدعو - في الغالب - يتطبع بطباعه هو، فلو رآه يحب العلم لنشأ مثله، ولو رآه يحب العبادة لنشأ مثله، ولو وجده غافلاً لنشأ مثله.

تنبيه: هذه الطرق ليست متعارضة، فلو استطاع المرء أن يكون إماماً وقُدوةً في كل طريق، فليفعل فهذا أفضل المنازل، فإن لم يستطع، فعليه بالحد الأدنى من كل طريق، وليبرز فيما يحبه ويشعر بأنه سيتفوق فيه، فليس معنى تفضيل طريق العلم أن يلزم العبد نفسه بها وهو لا يرى نفسه أهلاً لهذه المنزلة، فإن كان العبد لا يرى نفسه بارزاً في أمر ما، فليبدء بطريق العلم ولا ييأس، فقد كان الطحاوي يدرس المذهب الشافعي على يد عمه المزني، فقال له المزني: «والله لا تفلح» فغضب الطحاوي ودرس المذهب الحنفي حتى صار إماماً فيه، فإن حاول العبد ورأى أنه لا سبيل للتفوق في العلم، فعليه بطريق الدعوة فهي أنفع من طريق العبادة، فإن لم يتيسر له، فعليه بطريق العبادة، والله الموفق للخير.

(د) طريق سلامة النفس والصدر وحسن الخلق:

وهي طريق من طرق الوصول إلى معرفة الله، وقد قال عنها عبد الله بن عمرو: «وهي التي لا نطيق» (رواه مسلم)، وفي الحديث: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق»، وفي آخر: «أكثر ما يدخل الناس الجنة: تقوى الله وحسن الخلق»، وفي ثالث: «إن الرجل ليبلي بحسن خلقه درجة الصائم القائم» وفي رابع: «ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً».

وقال ابن عباس: «لكل بنيان أساس، وأساس الإسلام حسن الخلق».

وقال عطاء: «ما ارتفع من ارتفع إلا بحسن الخلق».

وقال يحيى بن معاذ: «في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق»، فصاحب هذه الطريق يحتمل أذى الناس، ويصبر على إساءتهم، ويحسن إليهم لا غل عنده ولا حقد ولا حسد، ومعه أساسيات الطريق كما قدمنا، فهو حليم لا يغضب، ورفيق يتأنى في أمره يحب الخير للناس، ويجب لهم ما يجب لنفسه، ويتألم لألمهم ويفرح لفرحهم، يؤثرهم على نفسه ويبدل ماله ووقته من أجل إسعادهم... يقابل الإساءة بالإحسان ويعفو ويصفح... لين سهل قريب لا يتكبر على الناس بل يتواضع لهم... قريب من الفقراء والمساكين... ويحسن إلى اليتامى... قلبه سليم لا يعرف البغض ولا الضغينة... يرى للناس عليه الحق، ولا يرى لنفسه عليهم حقاً... لا يخاصم ولا يشاتم... سهل إذا باع وسهل إذا اشترى وسهل إذا اقتضى... ينظر المعسر ويتصدق على الأرامل... يعطف على الحيوان... لا يعرف الأذى ولا الإضرار، قنوع لا طمع عنده... يمثل قول أحد السلف: «الحرُّ عبدٌ ما طمع، والعبد حرٌّ ما قنع»... إذا عاشره أحد احتقر عبادته... ولا يعلم ما في قلبه من النور الذي يعجز عنه كثير من العباد... لا يغلظ على العصاة بل يرفق بهم حتى يعلمهم... يؤدي للناس الذي لهم عليه... ولا يسألمهم ما له عليهم... نقي القلب تقي الصدر... خفي في الأرض معلوم في السماء، ينسى ما أسدى للناس من خير... ويتذكر ما أسدوه إليه من خير... يحسن إلى الخلق دون أن يعلمهم بذلك... ولا يعد ما عمله شيئاً... لا منّة عنده ولا أذى... سمي النفس... وقور العقل... لا طيش عنده ولا عجلة... يأتي الفضائل ويترك الرذائل... وما أصدق ما قاله ابن حزم: «ليس بين الفضائل والرذائل ولا بين الطاعات والمعاصي إلا نِفار النفس وأنسها فقط»...

وإذا رأى أخاه على معصية... حزن من أجله.. ودعا لنفسه وللمسلمين بالمعافاة... ولم يفرح ولم يشمت فيه... يتمنى أن لو التزم الناس جميعًا بمنهج الله... ولو كان على سبيل راحته وسعادته... لا ينافس الناس على الدنيا... ولا يتعلق بها... فهو في الدنيا كغريب أو عابر سبيل... إذا رأى من صام في يوم إبطاره... قال حمدًا لله، فعسى أن ترحم الأمة بصيامه... وإذا رأى من قام عند منامه... قال عسى أن يدعو بالليل لإخوانه... لا يريد أن ينفرد عن الناس بخير... فحاله كحال ابن واسع إذ قال لابنه عند إبطاره: ائتنني بماء كي تنال ثواب صيامي... ليس همه أن ينفرد عن الناس بالعبادات... بل همه أن توجد الطاعات وتموت السيئات.. لو صام وأفطر الناس دعا للجميع بالإثابة عند إبطاره... ولو قام والناس نائمون دعا بالثواب للجميع في أسحاره... لو رأى أصغر منه قال: عصيت الله قبله فهو خير مني... ولو رأى أكبر منه... قال: أطاع الله قبلي فهو خير مني... لسان حاله يقول: ما نزل بالمسلمين بلاء إلا بسببي... فلو مت لاستراح الناس... إن غيره أحد بعيه... لم يعيره هو بعيه... بل يقول له: صدقت وما في أكثر مما قلت... فإن اعتذر له العائب بعد... لقال له: قد غفرت لك ساعة غير تني وشتمتني، وفي الحديث: «وإن عيّرك امرؤ بما يعلم فيك فلا تعيّره بما تعلم فيه»... لو شتمه شاتم من إخوانه... لقال: أعلم أنك لا تقصد... يلتمس المعاذير... ويستر القبائح، حاله كحال أم الدرداء حين أخبرت أنّها قد اغتابها رجلٌ عند عبد الملك بن مروان، فقالت: «إن نُؤبِّنَ (أي تُنْهَمَ) بما ليس فينا فظلمنا زُكِّينا بما ليس فينا»... لا يسأل الناس شيئًا من أمور الدنيا، بل لا يسألهم أن يعملوا له عملاً... ويعمل لهم ما يريدون دون طلب... فإذا كان في عمل الآخرة لا يسألهم مساعدته... إلّا لينالوا الثواب مثله...

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «قد جمع بعضهم علامات حسن الخلق، فقال: هو أن يكون كثير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان، قليل الكلام كثير العمل، قليل

الزلل قليل الفضول، برًّا ووصولًا وقورًا صبورًا شكورًا، رضيًا حليًا رفيقًا عفيفًا شفيقًا، لا لعانًا ولا سبابًا ولا نهمًا ولا معتابًا ولا عجولًا ولا حقودًا ولا بخيلًا ولا حسودًا، بشاشًا هشاشًا يحب في الله ويبغض في الله ويرضى في الله ويغضب في الله، فهذا هو حسن الخلق»^١هـ.

قلت: حسن الخلق كذلك يمثل قول النبي ﷺ: «فمن أحب أن يُرحَّح عن النار، ويدخل الجنة؛ فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه» (رواه مسلم)، وقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (متفق عليه)، وهو كذلك ينصف الناس ولا يحابي نفسه، وطريقه في ذلك ما قاله ابن حزم: «من أراد الإنصاف، فليتوهم نفسه مكان خصمه، فإنه يلوح له وجهه تعسفه»، وهو كذلك يحذر أشد الحذر من سوء الخلق وعواقبه الذميمة ممثلاً قول النبي ﷺ: «وإنَّ سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل»، وقوله ﷺ: «وإياك ومما يُعتذر منه».

فائدة:

قال الغزالي: «أول ما يُمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفاء، ومن شكَا من سوء خلق غيره دلَّ ذلك على سوء خلقه، فإنَّ حسن الخلق احتمال الأذى»^١هـ.

فَضْلٌ

واعلم أنَّ الناس قد اختلفوا في تعريف حسن الخلق، ومن أحسن ما قيل فيه ما ذكره الغزالي رَحِمَهُ اللهُ بقوله: «الخلقُ عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولةٍ ويسرٍ من غير حاجةٍ إلى فكر ورويةٍ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة، سميت الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال

القبیحة سمیت هیئة التي هي المصدر خُلِقًا سيئًا. وإنّا قلنا: إنّه هیئة راسخة؛ لأنّ مَنْ يصدر منه بذل المال على الدور بحالةٍ عارضة لا يقال: خلقه السخاء، ما لم یثبت ذلك في نفسه، وكذلك من تكلف السكوت عند الغضب بجهدٍ أو رويّة لا يقال: خُلِقَ الحلم، وليس الخُلُق عبارة عن الفعل؛ فرب شخصٍ خلقه السخاء ولا يبذل: إمّا لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خُلُقُه البخل، وهو يبذل لباعثٍ أو رياء، وأمّا ما ورد من أقوالٍ لبعض السلف في تعريفه، كقول الحسن: هو بسط الوجه وبذل الندي وكفّ الأذى، وقول الواسطي: هو ألا يخاصم، وقول شاه الكرمانی: هو كفّ الأذى واحتمال المؤن، وقول سهل التستري: أدناه احتمال الأذى وترك المكافأة، والرحمة للظالم والشفقة عليه، فهذه كلها ثمرات لحسن الخلق لا نفسه^١..هـ.

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللهُ: «فالخلق إذا عبارة عن هیئة النفس وصورتها في الباطن، وكما أنّ حسن الصورة الظاهرة مطلقًا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر؛ فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق، وهي: قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث؛ أمّا قوة العلم: فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقيح في الأفعال، فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة.

وأمّا قوة الغضب: فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حدٍّ ما تقتضيه الحكمة، وكذلك قوة الشهوة حسننها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة، أعني إشارة العقل والشرع، وأمّا قوة العدل فهي ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع، وأمّهات الأخلاق وأصولها أربعة: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل، ونعني

بالحكمة حالة للنفس بها تدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية، ونعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة، ونعني بالشجاعة كون قوة البدن منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها، ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع، ومن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها^١ هـ.

فَضْلٌ

ويتهيأ للمرء حسن الخلق بأمورٍ، منها:

(أ) اطلاعه على فضل حسن الخلق الوارد في القرآن والسنة وأقوال السلف، وقد مضى طرفٌ من ذلك.

(ب) دوام التضرع إلى الله واللجوء إليه بحسن الخلق كما ورد عن النبي ﷺ: «واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت»، وإنما يتفجع بالدعاء بحسن الخلق عبداً ذاق ويلات سوء الخلق واستاء من أخلاق نفسه ويأس من صلاحها إلا بالله، فلا أمل له إلا في ربه وخالقه الذي خلق النفوس وركب فيها الطباع، فإذا به يلج ويستغيث بربه أن يعينه من شر نفسه وسوء خلقها.

(ج) أن يعلم حقيقة حسن الخلق، ولا يظهر ذلك إلا عند الابتلاء والاختبار، فالحلم إنما يظهر عند وجود الغضب وهيجانه، والقدرة على إنفاذه، والسخاء إنما يظهر عند وجود الاحتياج إلى المال، ففي الحديث: «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى»، وليس امتناع المرء من معاقبة المسيء لكونه أعلى سلطاناً منه دليلاً على الحلم، وإنما الحلم أن يمتنع المرء مع قدرته على إنفاذ غضبه، وقد قال بعض الحكماء: «لا يعرف الجواد إلا في العسرة، ولا يعرف الحليم إلا في الغضب»، وقال آخر: «في تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال».

(د) أَنْ يَطَّلَعَ الْمَرْءُ عَلَى أَخْلَاقِ النَّبِيِّ ﷺ فِي سِيرَتِهِ الْعِطْرَةِ وَأَخْلَاقِ أَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ مَعَ مَجَاهِدَةِ النَّفْسِ فِي الْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ، وَتُعْرَفُ تِلْكَ الْأَخْلَاقُ بِالْإِطْلَاعِ عَلَى السُّنَّةِ وَعَلَى كِتَابِ السِّيرِ كـ (كِتَابِ سِيرِ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ، كِتَابِ تَهْذِيبِ حَلِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ، صِفَةِ الصَّفْوَةِ، كِتَابِ الزَّهْدِ لِلْإِمَامِ أَحْمَد).

(هـ) أَنْ يُوَطَّنَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ عَلَى بَذْلِ الْجُهْدِ، وَعَلَى أَنَّ طَرِيقَ الْوَصُولِ لِحَسَنِ الْخَلْقِ يَحْتَاجُ إِلَى بَذْلِ وَتَضَحِيَةٍ، وَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قِتَالُ لَوْلَا الْمَكَارِهِ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ

وَقَالَ د. عَبْدِ اللَّهِ الرَّحِيلِي: «مَنْ يَرِيدُ مَعَالِيَ الْأُمُورِ لَا بَدَلَ لَهُ مِنْ أَنْ يَدْفَعَ ثَمَنَهَا الْمُنَاسِبَ، وَأَوَّلُ ثَمَنِ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ أَنْ يَسْمُوَ الْمَرْءُ أَوَّلًا بِتَفْكِيرِهِ، كَمَنْ يَرُومُ صُعُودَ الْجَبَلِ الْعَالِي الْأَشْمِ يَبْدُوهُ أَوَّلًا بِرَفْعِ بَصَرِهِ إِلَى الْقِمَّةِ الَّتِي سَيَسْعَى إِلَيْهَا وَيُوَطَّنُ نَفْسَهُ عَلَى مَا يَتَطَلَّبُهُ الْوَصُولُ إِلَيْهَا مِنْ تَضَحِيَّاتٍ ثُمَّ يَحْتَاجُ إِلَى السَّعْيِ وَالْجُهْدِ وَالْعَزْمِ غَيْرِ مُلْتَفِتٍ إِلَى الْمَشَقَّةِ وَالْجُهْدِ وَالْعَرَقِ وَالْوَقْتُ» ١. هـ.

وَقَالَ سَفِيَانُ الثَّوْرِي: «مَا عَاجَلْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي مَرَّةً لِي وَمَرَّةً عَلَيَّ»، وَقَالَ الْحَسَنُ: «مَا الدَّابَّةُ الْجَمُوحُ بِأَحْوَجَ إِلَى اللَّجَامِ الشَّدِيدِ مِنْ نَفْسِكَ»، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ: «جَاهِدْ نَفْسَكَ بِأَسْيَافِ الرِّيَاضَةِ».

وَقَالَ أَبُو يَحْيَى الْوَرَّاقُ: «مَنْ أَرْضَى الْجَوَارِحَ بِالشَّهَوَاتِ، فَقَدْ غَرَسَ فِي قَلْبِهِ شَجَرَ النَّدَمَاتِ».

وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ حَمِيدٍ: «أَجْمَعْتَ الْعُلَمَاءَ وَالْحُكَمَاءَ عَلَى أَنَّ النَّعِيمَ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِتَرْكِ النَّعِيمِ».

(و) أن يتكلف المرء الأخلاق الحسنة من حلمٍ وتواضعٍ وسخاءٍ وغيرها حتى تصير له عادةً، وفي الحديث: «وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ» (متفق عليه).

قال الغزالي: «اكتساب الأخلاق الحسنة بالمجاهدة والرياضة يُعنى به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب، فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود، فطريقه أن يتكلف فعل الجواد وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر، فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدةً مديدة، وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه، وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذه الطريق، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً، فالسخي هو الذي يستلذ بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة، والمتواضع هو الذي يستلذ التواضع، ولن ترسخ الأخلاق الحسنة في النفس ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة، وما لم تترك جميع الأفعال السيئة، وما لم تواظب عليه مواظبة من يشاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها، ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهةٍ واستثقال فهو نقصان، ولا ينال به كمال السعادة، نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير، ولكن بالإضافة إلى تركها لا بالإضافة إلى فعلها عن طوع، ثم لا يكفي في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر، وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل»^١ هـ.

(ز) أن يوطّن المرء نفسه صباح مساء على ضرورة التخلص بالأخلاق الحسنة وتكلفتها حتى إذا ما جاءت أسباب الأخلاق السيئة من غضبٍ وكبرٍ وغيرها كان على

استعداد؛ فإنَّما الصبر عند الصدمة الأولى، كما في الحديث، ومع مداومة العبد على توطين نفسه على ذلك يصير ذلك هو خلقه المعتاد، والله المستعان.

(ح) أن يتفكر المرء في العواقب الوخيمة للأخلاق السيئة سواءً في الدنيا أو في الآخرة، وما أجمل ما قاله الأحنف بن قيس: «ألا أخبركم بأدواء الداء؟ قالوا: بلى، قال: الخلق الدنيء واللسان البذيء».

وقال بعض الحكماء: «من ساء خلقه ضاق رزقه».

وقال آخر: «السيء الخلق: الناس منه في بلاء، وهو من نفسه في عناء، والحسن الخلق: هو من نفسه في راحة والناس منه في سلامة».

وقال بعض الأدباء: «إياك وعزة الغضب، فإنها تفضي إلى ذلّ الاعتذار».

وقال حكيم: «ليس في خصال الشر أعدل من الحسد، يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود».

وقال آخر: «عقوبة الحاسد من نفسه».

(ط) أن يخالط الناس، فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق، فليطالب نفسه به وينسبها إليه، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه، وليعلم أنَّ الطباع متقاربة في اتباع الهوى، قيل لأحد الحكماء: مَنْ أدَّبَكَ؟ قال: رأيت جهل الجاهل شيئاً فاجتنبته.

(ي) أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً ليلاحظ أحواله وأفعاله، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه، فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين.

فَضْلٌ

قال د/ عبد الله الرحيلي: «وهذه قواعد في باب الأخلاق، سجلتها بحسب ما أملاه عليّ الموقف أو الحالة التي أشهدها ويشهدها غيري من تعاملي مع الناس، ومن تعامل الناس بعضهم مع بعض:

١ - لا يسوغ لك أن تتخذ ظروفك سبباً أو عُذراً لك في الإساءة للآخرين مهما كنتَ معذوراً عند نفسك.

٢ - لا تكتفِ بنقد الآخرين وتنسَ نفسك، بل اشتغل بنقد نفسك أولاً، لأنك مكلفٌ بها أولاً.

٣ - لا تقبل من نفسك ما تدم به الآخرين؛ فإنه عيبٌ شنيعٌ عند الله تعالى وعند الناس.

٤ - إذا أساء أحدٌ إليك، فلا تتخذ ذلك سبباً للإساءة إليه.

٥ - بإمكانك التعرف على حقيقة أخلاقك بالنظر إليها: إذا خلوت، وإذا غضبت، وإذا احتجت (من الحاجة)، وإذا قدرت، وإذا استغنيت.

٦ - لا تلتمس لنفسك الأعذار في الأخطاء الصغيرة؛ فإنها طريقٌ لما هو أكبر منها.

٧ - لا يغرك حسن أخلاقك في الرخاء حتى تجرّب نفسك في أوقات الشدة والغضب وسائر الحالات التي تشتدّ فيها الحاجة إلى الأخلاق الفاضلة.

٨ - لا تنظر لخطئك الصغير من حيث صغره، ولكن انسبه إلى دوافعه، تظهره لك دلالة وحقيقته.

٩- الكرم والصبر والحلم والرحمة، ونحوها من الأخلاق لا تأتي دفعة واحدة، كما أنها لا تدرك بسهولة، ولا تدرك في وقتٍ قصير، بل تحتاج إلى وقتٍ طويل، وإلى تدرج ومرانٍ وصبرٍ وتضحية، ولكنها أخلاق ضرورية نفيسة، فتستحق أن يبذل فيها الثمن.

١٠- يظنّ الحسود والنمام والمغتتاب والفاحش البذيء، يظنّ هؤلاء جميعاً أنهم ينتقمون من الآخرين، وينسون أنهم إنما يُلحِقون الضرر بأنفسهم في الدنيا قبل الآخرة؛ إذ يعود عليهم ذلك الصنيع بأمراض النفس والبدن، وعذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

١١- كم ودِدْتُ لو أُقيمت نوادٍ وندوات لكمال العقول، إذ ذلك أولى ممّا يقيمهم الناس من نوادٍ لكمال الأجسام.

١٢- عود نفسك الكرم والسماحة في قبول أعذار الناس، وإياك أن تعودها التشنّج والغضب والحساسية المفرطة من كل خطأ يقترفه الآخرون في مجال حقوقك الشخصية» ا.هـ.

حكمة الله في تنوع الطرق؛

✽ أن الوصول يحتاج إلى صبر وبصيرة، وكثير من الناس على غير ذلك، فجعل سبحانه طريق الوصول طويلاً نوعاً ما ليعلم الواصل كيف وصل، فيبين لضعاف الصبر والبصيرة ليكونوا على بينة من أول الأمر، ثم ألهم سبحانه من يسلك إحدى هذه الطرق التفرغ التام له ليعرف الحقائق التي لا تعرف إلا بطول ممارسة، فيعلّم بعضهم بعضاً، فكلُّ سالك يتفرغ لطريقه ليعرف الحقائق ويهديها إلى أخيه سهلة ميسرة.

✽ أن السالك لطريق يجد في نفسه غالباً حباً شديداً لما هو فيه، فلا يكاد يريد تركه إلى غيره، فجعل سبحانه الواجب على العبد الحد الأدنى من كل طريق، فيجب على الجميع تعلم الواجب، ويجب على الجميع العبادة الواجبة، ويجب على الجميع الدعوة

الواجبة من تغيير المنكر والأمر بالمعروف، ويجب على الجميع حسن الخلق الواجب من ترك الحقد والحسد وغيره بل لا يصل أحدهم إلا بنيله من المستحبات نيلاً حسناً مناسباً له، وذلك لتمييز من سلك الطريق لهوى النفس وإرادتها، فلا يكاد يترك ما تفرغ له، ممن سلكه لله فهو يعمل ما يحبه ربه وإن كان في خلاف ما تعلق به، فهو يقوم الليل مع أن حبه للعلم قد يدعوه لترك القيام من أجل طلبه للعلم، فالسالك الحق هو الذي يطلب رضا ربه لا حظاً نفسه، والله المستعان.

✽ أن السالك لطريق من هذه الطرق قد يجد الملل والفتور أحياناً فنوعت له طرق الوصول ليسلك عند فتوره أي طريق شاء، ولتفرغ وقت نشاطه لما برز فيه.

✽ لأن العبد ربما لو تفرغ للطريق وكانت الطريق واحدة ربما أصيب بالعجب، فلما تنوعت الطرق ووجد في كل واحد منها بارزون صار كل سالك يلوم نفسه على تقصيرها في الطرق الأخرى، فبدلاً من عجبه بطريقه إذا به يشتاق إلى الكمال في الطرق الأخرى، فهذا ابن الجوزي يقول: «والهفتاه... على قيام معروف وصيامه»، فانظر إلى هذا الخبر الفذ كيف تأسف على العبادة مع بروزه في العلم ونيله من العبادة حظاً وافراً، والله المستعان.

✽ أن التفوق والنبوغ لا يأتي إلا بعد طول فترة، وليست قدرات الناس ومحابهم واحدة، فنوع الله الطرق لتفرغ كل فريق لما يجد فيه نبوغه، فتنشأ المواهب... فهل عرفت الأمام مثل زهد ابن حنبل؟؟ وهل عرفت مثل ورع الحافي ومعروف؟ وهل فيها مثل سخاء ابن المبارك؟ وهل عرفت مثل فقه أبي حنيفة؟ وهل فيها مثل عبادة الجنيد؟ وهل فيها مثل رضا شيخ الإسلام؟ وهل فيها مثل خوف سفيان؟؟ وهل فيها كوعظ ابن الجوزي وابن رجب الحنبلي؟

ليكون اختباراً للعبد إذا رأى غيره تفوق فيما لم يتفوق فيه، فهل سيدعو له بالتوفيق لينفع المسلمين، فيكون السالك حقاً أم سيحتقر عمله، ويقول: طريقي خير من طريقه، فيكون هو الجاهل حقاً؟ فسبحان الحكيم الخبير.... وعند الاختبار يتميز الأعمى من البصير...

وأخيراً: أقول ينبغي لكل واحد من سالكي هذه الطرق أن يجتهد وي بذل قصارى جهده فيما يشاق إليه ويحبه ولا يقاوم رغبات نفسه، أعني لو طالبتة نفسه بطريق العلم، فليسلكها، وكذا لو طالبتة بطريق العمل، ولتفرغ لها إلا في ما لا بد من تحصيله من بقية الطرق، والله المستعان.

تنبيهات:

✽ ليست هذه المواعظ ولا هذا الكتاب لمصّ الشفاه إعجاباً، وإنما هو للفهم والتطبيق، فأنصح كل قارئ أن يقرأ الكتاب على مهل، فكل كلمة مقصودة المعنى والله المستعان.

✽ هذا الكتاب كتاب عُمُر يحتاجه المسلم على مدى حياته، فالأعمال القلبية والمعاني الإيمانية يحتاج المسلم إلى تذكرها ومراجعتها على الدوام، ولذا أنصح كل قارئ له بإعادة قراءته بين الحين والآخر ليراجع نفسه ويهذبها، والله الموفق.

